سلسلة الأعمال المترجمة (8) ترجمة آلية

مقال عن
الأعراق المسماة بربرية وتكوّينها الإثني

المؤلف

جان أندريه نابليون بيرييه
(1880/1806)

ترجمة آلية
توفيق عياد الشقروني



LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية

عنوان الكتاب: الأعراق المسماة بربرية وتكوّينها الإثني
تأليف: جان أندريه نابليون بيرييه
ترجمة الية: توفيق عيّاد الشقروني
الناشر:الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية/ مؤسسة Libyan Word Bridge
السنة 2025م
سلسلة الأعمال المترجمة (8)
التصميم والإخراج: الناشر

LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية

إهداء

إلى والدي رحمه اللّه

فهرس المحتويات

تقديم الطبعة العربية

يضع هذا الكتاب بين يدي القارئ، ترجمة كاملة لأحد الأعمال الأنثروبولوجية المبكرة والمؤثرة في دراسة شعوب شمال إفريقيا. نُشر هذا العمل في الأصل عام 1873 بقلم الباحث الفرنسي جان-أندريه نابليون بيرييه، في حقبة كانت فيها الأنثروبولوجيا كعلم لا تزال في طور التكوين، وكان الاهتمام الأوروبي بـ"أصول الشعوب" في أوجه، متأثراً بالتوسع الاستعماري والنظريات العرقية السائدة آنذاك.

لقد آثرنا في هذه الترجمة الحفاظ على العنوان الأصلي بأكبر قدر من الدقة: "حول الأعراق المسماة بربرية وتكوّنها الإثني". وقد تبدو بعض مصطلحاته، قديمة اليوم، لكنها تعكس الفكر العلمي للقرن التاسع عشر. والأهم من ذلك، أن استخدام المؤلف لهذه العبارة "المسماة بربرية" (dites berbères) لم يكن اعتباطياً، بل كان يعكس تشكيكًا علميًا مبكرًا في صحة إطلاق تسمية واحدة – "البربر"، وهي تسمية خارجية ذات أصل لاتيني – على فسيفساء متنوعة من الشعوب تمتد من مصر إلى المحيط الأطلسي. هذا التشكك يتوافق اليوم مع الوعي الأمازيغي الحديث الذي يفضل مصطلح "الأمازيغ" ومشتقاته للتعبير عن هويته الذاتية، ويؤكد على تنوعه الداخلي.

في صفحات هذا الكتاب، يقدم بيرييه استعراضًا تاريخيًا وإثنوغرافيًا واسعًا، يميز فيه بين المجموعات السكانية المختلفة التي تشكل الشعب الأمازيغي، مثل القبايل، والتوارق، والشاوية، والشلوح وغيرهم. معتمداً على المصادر الكلاسيكية (هيرودوت، سالوست)، والكتابات العربية (ابن خلدون)، والملاحظات الميدانية المتاحة في زمنه، يحاول المؤلف فك شفرة الأصول المعقدة لهذه الشعوب، ويناقش نظريات الهجرات القديمة، وتأثير الغزوات المتعاقبة، ويسلط الضوء على الخصائص اللغوية والثقافية التي تجمع وتفرق بين هذه المجموعات.

ومع ذلك، لا بد من تنبيه القارئ إلى أن هذا العمل هو نتاج عصره. فهو يحمل في طياته بعض الافتراضات والنظريات التي تجاوزها علم الأنثروبولوجيا الحديث، كما أنه مكتوب حتماً من منظور أوروبي. لذا، فإننا ندعو إلى قراءة هذا النص قراءة نقدية، لا كحقيقة مطلقة، بل كوثيقة تاريخية بالغة الأهمية.

إن أهمية ترجمة هذا الكتاب اليوم تكمن في المعلومات القيمة التي يحتويها عن تاريخ شعوب شمال إفريقيا، وكونه مرآة تعكس بداية تشكّل النظرة الأنثروبولوجية الغربية لهذه المنطقة. إنه يتيح لنا فهم كيف بُنيت المعرفة حول الأمازيغ، وما هي الأسئلة التي شغلت الباحثين الأوائل، وكيف أثرت أفكارهم على الدراسات اللاحقة.

نأمل أن تكون هذه الترجمة إضافة نوعية، ومصدراً لا غنى عنه للباحثين الأمازيغ وكل مهتم بتاريخهم، ليس فقط لمعرفة ما قيل عنهم، بل لفهم "كيف" و"لماذا" قيل، وهو ما يفتح آفاقاً جديدة لإعادة كتابة هذا التاريخ من منظور ذاتي وأصيل.

ملاحظات:

- فهرس المحتويات يشير إلى صفحات هذه النسخة المترجمة.
- بعض الأسماء الواردة في الكتاب تحتاج مزيد من الضبط.
- بعض المعلومات ضاعت نتيجة عدم وضوح الأصل.

توفيق عيّاد الشقروني
21 نوفمبر 2025
قصبة أولاد مادي
الشقارنة -يفرن

حول الأعراق المسماة بربرية وتكوّينها الإثني

بقلم السيد ج. أ. ن. بيرييه

مقدمة.

بالنسبة لليونانيين القدماء، كانت ليبيا هي أفريقيا، وأفريقيا هي ليبيا. ولم يكن هناك، بالنسبة لهيرودوت، سوى سلالتين من الشعوب الأصلية، الليبيون في الشمال والإثيوبيون في الجنوب؛ أما الأجانب فكانوا الفينيقيين واليونانيين.[1] وكان الليبيون في شمال أفريقيا أيضًا من البرابرة، وهم من أطلق عليهم علماء الأنساب المسلمون اسم «البربر» بشكل جماعي، حيث ينسب معظمهم أصلهم إلى حام، عن طريق «بر» أو «بِرّ» أو «بربر»[2]، ومنه جاء اسمهم الحالي.

ولكن، يجب الإسراع بالقول إن اسم «البربر» هذا، لا يطلقه القبايل على أنفسهم، باستثناء قلة منهم في الصحراء الجزائرية، وأن التوارق يرفضونه، وأنه لم يعد محفوظًا إلا لدى أمازيغ/ بربر، المغرب.

1-الكتاب الرابع، الفصل 192، والكتاب الثاني، الفصل 32.

2-االإدريسي، الجغرافيا، ترجمة فرنسية، بقلم أميدي جوبير (في «مجموعة الرحلات والمذكرات التي نشرتها الجمعية الجغرافية»)، المجلد 1، ص. 203-204؛ باريس، 1836-1840. ابن خلدون، تاريخ البربر، إلخ، ترجمة فرنسية، بقلم دي سلان، المجلد 1، ص. 167 وما بعدها؛ الجزائر.

ومع ذلك، فإن تسمية «البربر» قد ترسخت. وهي تشمل بالنسبة لنا، من مصر إلى المحيط وحتى الصحراء الكبرى، جميع سكان شمال أفريقيا الأصليين، الذين يُعتبرون بشكل عام من السكان الأصليين، وهي تسمية غامضة لدرجة أنها تثير ارتباكًا كبيرًا في وصف الأعراق البشرية في هذا البلد، لدرجة أنه لو أمكن التخلي عنها، لإعطاء هذه الشعوب الأسماء التي يطلقونها على أنفسهم، لكان ذلك في حد ذاته مؤشرًا على التقدم. فَيُطلق اسم «القبايل» على من يسمون أنفسهم قبائل (مفردها «قبايلي»)، ويُطلق اسم «إيموهاغ» أو «إيموشاغ» على التوارق الذين يطلقون على أنفسهم هذه الأسماء، والتي لها نفس معنى «أمازيغ»، وهو اسم نجده في أسماء «الماكسيس» أو «المازيغ» القدماء. وينبغي أن يكون الأمر كذلك، حتى لو افترضنا أن هذه التسميات المختلفة لا تنطوي على اختلافات عرقية، ومن باب أولى إذا كانت الفرضية معاكسة.

أن يتم إدراج هذه المجموعات السكانية تحت الاسم المشترك «البربر» في القرون قليلة الاستنارة، وهو اسم مشتق بالتأكيد من «Barbari» (برابرة) وليس من «Ber» (بِرّ)، فهذا أمر مفهوم؛ ولكن قد حان الوقت لمراجعة هذه التقاليد البالية، وإصلاحها أيضًا. فإذا كانت هذه الشعوب متشابهة، لكانت تسمية واحدة قد سادت بينهم وفي أماكن أخرى بلا شك، وإذا لم تكن متشابهة، فلماذا يتم توحيدها اسميًا؟ فالكلمات ليست سوى علامات للأفكار. ولا ننسى، علاوة على ذلك، أن فصل الأنواع والأعراق وتمييزها، عند الاقتضاء، هو التقدم في المعارف الأنثروبولوجية.

إذن، فالمسألة المهمة في هذا الصدد هي معرفة ما إذا كانت التسميتان الرئيسيتان «القبايل» و«التوارق» ترتبطان، أم لا، باختلافات ذات طبيعة عرقية. هذه المسألة، كما يعلم الجميع، يحكم عليها بالإيجاب العديد من المؤلفين العلماء؛ ولكن، دون الادعاء بحلها، فإننا سنجعلها مع ذلك موضوع دراسة خاصة. وسنحاول إلقاء الضوء عليها بقدر ما

تسمح به الحقائق المعروفة، وسنواجه، على الأقل، الشك المفيد في وجه التأكيدات التي تفتقر إلى الأدلة.

دراسة الشعوب المسماة بالبربرية في الماضي والحاضر؛ وتمييز مدى نقائها أو اختلاطها بفعل الهجرات؛ والتمييز بينها، والبحث بشكل خاص، من خلال مقارنة خصائصها، فيما إذا كان القبايل والتوارق، هاتان المجموعتان الأساسيتان في الأسرة الأفريقية الشمالية، لا يشكلان نوعين مختلفين عرقيًا، هذا هو بالفعل الهدف العام الذي نضعه نصب أعيننا في هذا العمل.

لو استمعنا فقط لتحفظاتنا، لكنا امتنعنا مرة أخرى عن تقديم وجهات نظرنا لحكم الجمعية. لكن العلم يتغذى من كل نقاش؛ وفي انتظار الأفضل، وعلى أمل المساعدة في إجراء أبحاث جديدة، قد يكون من المناسب عدم الامتناع لفترة طويلة جدًا: وهذا هو عذرنا.[1]

أولا. الجيتول والليبيون.

وفقًا للتقاليد الوطنية التي يستشيرها والكتب البونيقية المنسوبة إلى الملك النوميدي هيمبسال الثاني والتي طلب شرحها له، والتي لا بد أنها كانت ذات سلطة كبيرة، ميز سالوست بين شعبين باعتبارهما أول سكان أفريقيا: «في البداية، سكن الجيتول والليبيون أفريقيا». إذن، كان الجيتول والليبيون[2] أقدم من مَلَكَ هذه الأراضي؛ ولكن من هم هؤلاء الجيتول مقارنة بالليبيين؟ هل يجب تمييزهم عرقيًا، مع الأخذ في الاعتبار أنهم كانوا يحتلون مناطق مختلفة؟

1- تتذكر الجمعية أنها عينت سابقًا لجنة لدراسة أنثروبولوجيا الجزائر (النشرة، المجلد الخامس، ص. 539). وفي ذلك الوقت، كان علينا المشاركة في أعمال تلك اللجنة التي ظلت صامتة. لذا، فهذا بمثابة دين نؤديه متأخرين. ولكن، بما أن مسألة البربر على وجه الخصوص لم تُناقش في هذا المحفل، يسعدنا أن نذكر أن أحدث المنشورات حول هذا الموضوع تعود إلى زملائنا السادة لاغنو وتوبينار في «القاموس الموسوعي للعلوم الطبية»، مادة «البربر»؛ وفي «الموسوعة العامة»، مادة «إفريقيا (الأنثروبولوجيا)».

2-يوغرطة، الفقرة 18.

الجيتول، وهم أمة كبيرة ومنتشرة في عدة مناطق، «nation frequens multiplexque Gætuli» كما يقول بومبونيوس ميلا،[1] يضعهم القدماء وراء الموريتانيتين: «تقع جيتوليا تحت موريتانيا»؛[2] ليس لها حدود أخرى في الغرب سوى المحيط، وتواجه الجزر السعيدة، وتجاور أكثر المناطق حرارة.[3] وفي الشرق، حسب سترابون، كانوا يتقدمون حتى سرت، وفوقهم كانت بلاد الجرمنتيين،[4] وهو اسم يذكر بحملة كورنيليوس بالبوس. عاصمتهم، جرما القديمة (Garama)، هي اليوم جرمة في فزان.

لم يتحدث هيرودوت وديودوروس عن الجيتول. ولكن، إذا لم يكن في شمال أفريقيا بالنسبة لهيرودوت سوى الليبيين، فبالنسبة لديودوروس (بعد حوالي أربعة قرون)، لم يكن الليبيون سوى العرق الأصلي القديم، والأكثر عددًا في تلك البلاد؛ ثم جاء النوميديون، الذين سكنوا، كما يقول، جزءًا كبيرًا من ليبيا حتى الصحراء: «وأخيرًا، كان النوميديون الذين احتلوا مساحات شاسعة من ليبيا حتى الصحراء».[5]

هنا، يبدو أن تسمية النوميديين تشمل أولئك الذين حملوا اسم الجيتول. ووفقًا لميلا أيضًا، بعد الجيتول توجد صحراء واسعة غير مأهولة، وراءها نجد من الشرق إلى الغرب الجرمنتيين، ثم الأوجيليين، والتروغلوديت، وأخيرًا الأطلنطيين[6] الذين سموا بهذا الاسم نسبة إلى جبل أطلس.[7] لكن الجيتول توسعوا كثيرًا مع مرور الوقت، فيقول سيلاريوس: «ولكن فيما بعد، احتلوا مستوطنات جديدة عبر موريتANIA ونوميديا، حتى أن هذه الأمة لم تكن محصورة أو مكتفية بأي

1-الكتاب الأول، الفصل الرابع.

2- بطليموس، الجغرافيا، الكتاب الرابع، الفصل السادس.

3-سالوست، المرجع المذكور، الموضع المذكور. قارن مع بليني، الكتاب الخامس، الفصل الرابع، في النهاية.

4- الكتاب السابع عشر، الفصل الثالث، الفقرة 19.

5- الكتاب العشرون، الفصل 55.

6- الموضع المذكور، قارن مع الفصل الثامن.

7- هيرودوت، الكتاب الرابع، الفصل 182.

حدود تقريبًا».[1]

أما الليبيون، على العكس من ذلك، فكانوا منتشرين على شواطئ البحر الليبي، «كانوا يعيشون بالقرب من البحر الأفريقي»،[2] وفي المناطق التي سميت أفريقيا الحقيقية، ونوميديا، والموريتانيتين، ويحدها من الجنوب الجبال التي تمتد وراءها جيتوليا الحقيقية.

كان الجيتول يعيشون، بعضهم حياة مستقرة في أكواخ، والبعض الآخر حياة ترحال. «علمنا أن الجيتول فوق نوميديا يعيشون، جزء منهم في أكواخ، والآخرون يتجولون بشكل أكثر بدائية».[3] ويذكر سيليوس إيتاليكوس أكواخهم (mapalia)؛ وهم بالنسبة له من البدو والفرسان المهرة.

«لا بيت لهم؛ يعيشون في عربات، ومن عادتهم التنقل عبر الحقول، وحمل منازلهم المتنقلة. ومن هنا ألف فرس سريع».[4]

يُعرفون في العصور القديمة بأسماء عديدة، مثل الأوتولول باتجاه المحيط، والداري شرقًا، والبيرورسي جنوبًا، إلخ، وأخيرًا الميلانو-جيتول، وهم بلا شك مستعمرات أو فروع من الجيتول الأوائل.

أما الليبيون، فكانوا أكثر ارتباطًا بالأرض؛ كانوا يسكنون في مساكن ثابتة. ووفقًا لملاحظة سالوست، كانوا أقل ميلاً للحرب من الجيتول: «الليبيون أقل عدوانية من الجيتول».[5] وهكذا نرى الجيتول الشرسين، «شعب متوحش وغير متحضر»، يحاربون ليس فقط تحت قيادة يوغرطة ويوبا الأول، بل أيضًا ضمن القوات الرومانية في أفريقيا، وقبل ذلك في جيش حنبعل في إيطاليا.[6]

1- موجز العالم القديم، الكتاب الرابع، الفصل الثامن، المجلد الثاني، ص. 220، قارن مع ص. 221، لايبزيغ، 1706.

2- سالوست، المرجع المذكور، الموضع المذكور.

3-سالوست، المرجع المذكور، الموضع المذكور

4-بونيكا، الكتاب الثالث، الأبيات 290 وما بعدها.

5- المرجع المذكور، الفقرة 18.

6- سالوست، المرجع المذكور، الفقرتان 80، 99. (هيرتيوس)، تعليقات حول الحرب الإفريقية،

يجب ألا نغفل المازيغ أو المازيس (الذين ينحدر منهم المازيس)، وهم «المازيكس» عند بطليموس، الذين احتلوا جنوب شرق نوميديا القيصرية وراء جبل زالاكوس، وكانوا لا يزالون أمة قوية في زمن الكونت ثيودوسيوس الذي اضطر لمحاربتهم أثناء ثورة فيرموس الكبرى، وهم «شعب محارب وقاسٍ»، كما يقول أميانوس مارسلينوس.[1] سيكون هذا هو نفس الشعب الذي كشفت عنه مؤخرًا نقش في معبد الكرنك الرئيسي عن وجوده القديم، تحت اسم «ماشواش»، وهم أمة عظيمة من ليبيا، قاموا، بالاشتراك مع شعب «ريبو» أو «ليبو» (الليبيون الحقيقيون)، بغزو هائل لمصر، حيث كانت تنتظرهم هزيمة دموية.

ابن خلدون، دون أن يذكر أي قبيلة بهذا الاسم، يتحدث، نقلًا عن علماء الأنساب، عن «مازيغ»، ابن كنعان وجد «بر»، الذي انحدر منه «البرانس»، أحد الفرعين الكبيرين للأمة البربرية، والفرع الآخر هو «البتر»، المنحدر من «بر» آخر، كان ابن قيس وحفيد غيلان.[2] نلاحظ هذا التمييز بين البربر مرة أخرى في سلالتين أساسيتين، مما يعيدنا مع بعض المصداقية إلى الليبيين والجيتول عند المؤلفين القدماء.

أما المازيغ القدماء، فيضعهم هيرودوت غرب نهر تريتون، تحت اسم «ماكسيس»، ومن المحتمل أنهم لا يختلفون كثيرًا عن «الماكاي»، سكان ضفاف البحر أو القريبين منه.[3] يخبرنا نيميسيان، وهو شاعر ولد في قرطاج، أن «المازاكس»، في صحاريه، يربي سلالات ممتازة من الخيول،[4]

35، 55، 61، 93. تيتوس ليفيوس، الكتاب الثالث والعشرون، الفصل 18

1-بطليموس، المرجع المذكور، الكتاب الرابع، الفصل الثاني. أميانوس، الكتاب التاسع والعشرون، الفصل الخامس.

2-المرجع المذكور، ص. 168-169، قارن مع المقدمة، ص. XLII.

3-الكتاب الرابع، الفصل 180 وما بعدها، 191، 193، الكتاب الخامس، الفصل 42. سكيلاكس، الطواف البحري، نومونس وماكاي، ص. 45؛ أمستردام، 1639. دينيس البيريجي، عن موقع العالم، بيت شعر 214-217..

4- في فن الصيد، الأبيات 259 وما بعدها، في الشعراء اللاتين الصغار، مجموعة لومير، المجلد 1، ص. 123.

ويمكن اعتبارهم على الأقل حلفاء للجيتول، الذين كانوا جيرانهم بالقرب من سرت.[1] في الواقع، يارباس، ذلك الملك الشهير للجيتول، عند تأسيس قرطاج، يطلق عليه الشارح يوستاثيوس ملك النوميديين أو البدو والمازيغ.[2] ونتيجة لذلك، يطابق فولني بين المازيغ والجيتول، وفي نفس الوقت مع البربر والقبايل، قائلاً إن هذه الشعوب تطلق على نفسها في لغتها اسم «أمزيغ»، بصيغة الجمع «أمازيغ»، أو «أمزيغ» و«مازيغ».[3] ويعتقد سان-مارتن أنه يرى في الجيتول القدماء أسلاف «التوارق» المحدثين. ويضيف أن «هذه الأمة، التي تظهر تقاربًا كبيرًا مع البربر، تتميز عنهم مع ذلك، كما كان الجيتول يتميزون عن الليبيين»(20). اليوم، معظم الذين نسميهم توارق يسمون أنفسهم «إيموشاغ» أو «إيموهاغ»، تمامًا كما أن بربر المغرب وغيرهم ما زالوا يطلقون على أنفسهم اسم «أمازيغ» كما قلنا.

نلاحظ، عرضًا، أن سترابون يشير إلى تشابه الجيتول مع العرب البدو. يقول: «بين الجيتول وساحل البحر الأبيض المتوسط، يوجد عدد كبير من السهول والجبال والبحيرات الواسعة والأنهار. هؤلاء القوم... لديهم عدة زوجات والكثير من الأطفال؛ وفيما عدا ذلك، يشبهون العرب البدو». ومع ذلك، يقول المؤلف نفسه الشيء نفسه عن الموروسيين، والماسيسيليين، والليبيين بشكل عام، الذين يتشابهون في العادات و«في جوانب أخرى».[4] كان هناك بلا شك بين كل هذه المجموعات السكانية تشابهات كبيرة، سواء كانت معنوية أو جسدية. وعلاوة على ذلك، منذ أقدم العصور التاريخية، كان أصحاب الأرض قد تأثروا إلى حد ما، كما

1-ديودوروس، الكتاب الثالث، الفصل 49. بطليموس، المرجع المذكور، الكتاب الرابع، الفصل الثالث.

2- فيرجيل، الإليادة، الكتاب الرابع، بيت 388، قارن مع تعليق يوستاثيوس على ديونيسيوس بيريجي، المرجع المذكور، ص. 30، تعليق 217.

3-. العبرية المبسطة، إلخ، ص. 175-176؛ باريس، 1820.

4- ملاحظات على مقطع من سالوست، إلخ، في مذكرات أكاديمية النقوش والآداب، سنة 1836، المجلد الثاني عشر، ص. 140، قارن مع ص. 136.

سنرى، بالمستعمرات السورية-العربية التي وجدت هناك بدورها أراضٍ وعادات ونمط حياة يقترب من نمط حياتها.[1]

لذلك، يمكننا أن نلاحظ، بناءً على ما سبق، أنه لا يمكننا، دون جهد معين، دمج هذين الشعبين، الجيتول والليبيين، اللذين ذكرهما المؤلفون القدماء، والخلط بينهما في كيان واحد، وهما اللذان يبدو لنا أنه تم التمييز بينهما تاريخيًا، حتى منذ مصر القديمة. لاحقًا، سنوضح أن الشعوب الحالية التي يمكن اعتبارها ممثلة لهما في العصور الحديثة، أي التوارق والقبايل، ليست متشابهة أيضًا بالقدر الذي يُراد لنا أن نعتقده، بتسميتهم بشكل غير مناسب وجماعي «بالبربر».

سنقدم الآن لمحة عامة عن المجموعات السكانية التي يُقال إنها، في أقدم العصور، غادرت أوطانها لتستقر في هذه الأراضي الجميلة؛ وسنحاول تقييم آثار هذه الغزوات المختلفة على التكوين العام للأعراق الحالية.

ثانياً. الهجرات وآثارها.

اكتشاف نقش الكرنك ألقى ضوءًا جديدًا على الإثنوغرافيا (علم الأعراق) لشمال أفريقيا، ربما ينبغي أن نضع هجرة «الماشواش»، الذين تحدثنا عنهم بالفعل، قبل أي هجرة أخرى، والذين قاموا، بالتعاون مع شعوب أخرى، ولا سيما الليبيين، باجتياح مصر في القرن الرابع عشر قبل عصرنا. يُفترض أنهم كانوا من أصل شمالي؛ ولكن من أين أتى هؤلاء الرجال، الذين تميزوا بكونهم من عرق أشقر، وفي أي حقبة وصلوا لأول مرة إلى السواحل الليبية؟ هذا ما لا يذكره النقش، على حد علمنا. ومع ذلك، من الغريب أن إيزيدور الإشبيلي ينسب أصل الجيتول إلى القوط (أحفاد ماجوج)، تحت اسم «الجيت». وهذا يذكرنا بأنه، بناءً على بعض الدلائل، ساد الاعتقاد بإمكانية ربط اسم الجيتول باسم «الغيل»

1-الكتاب السابع عشر، الفصل الثالث، الفقرة 2؛ (الترجمة الفرنسية، المجلد الخامس، ص. 460، قارن مع ص. 459).

(بالأيرلندية، Gaoidheal)، والمطابقة بين الشعوب التي تمثلها هذه الأسماء وبين الليغوريين.[1] لكن لننتقل. إليكم كلمات إيزيدور: «يقال إن الجيتول كانوا من ‹الجيت›، الذين انطلقوا بأعداد غفيرة من أراضيهم على متن السفن، واحتلوا مناطق سرت في ليبيا، ولأنهم أتوا من ‹الجيت›، اشتق اسمهم وأطلق عليهم اسم جيتول.» ويضيف: «أما أفريقيا، فقد سكنها في البداية الليبيون، ثم الأفارقة، وبعدهم الجيتول، وأخيرًا المور والنوميديون.»[2] هذا التدخل، ذو المصدر الاشتقاقي، لـ «الجيت»، الذين تم تشبيههم بالقوط، بافتراض أنهم خرجوا من الدول الاسكندنافية (التي لم يكونوا من أصلها)، ويحملون سمات الأعراق الشقراء، يتوافق مع ملاحظة سكيلاكس، الذي يذكر على سواحل سرت الصغرى وجود رجال شقر، أي «شديدو الشقرة وغاية في الجمال»، والذين يُطلق عليهم اسم ليبيين.[3] وسيأتي ذلك لدعم ما يرويه بروكوبيوس، نقلاً عن قائد محلي من جوار الأوراس يدعى أورثاياس، عن وجود عرق من الرجال شديدي بياض البشرة، وشعرهم أحمر أو أشقر (Çzv6o)[4] في زمانه، وراء صحراء شاسعة. بل إن هذا الأمر يرتبط بوجود القبايل الشقر القدماء في تلك المناطق، وربما أيضًا التوارق ذوي البشرة البيضاء، حيث اعتُبرت هذه المجموعات السكانية في الأصل غريبة عن التربة الأفريقية.

أخيرًا، يبدو أن هذه الرواية لإيزيدور يجب أن تتوافق مع وثيقة الكرنك، التي تفيد بأنه في بداية عهد مرنبتاح، ابن رمسيس الثاني، حاولت موجات من الشعوب ذات الشعر الأشقر والعيون الزرقاء غزو مصر. كانوا، كما رأينا للتو، أممًا ليبية، وهم الشعوب التي أشار إليها المصريون بأسماء «التاهنو» (جيران مصر من جهة الغرب) و«التامهو»

1-روجيه دي بيلوكيه، الأصول الإثنية الغالية، الأنماط الغالية، إلخ، ص. 263، وما بعدها، 302، 310؛ باريس، 1861-1864. قارن مع أوليفييه، أبحاث حول أصل البربر، في مذكرات أكاديمية متز، سنة 1866-1867، ص. 454.

2-الأصول، الكتاب التاسع، الفصل الثاني.

3-المرجع المذكور، (فصل) آكلو اللوتس؛ قارن مع ملاحظات فوسيوس، نفس المرجع، ص 22.

4-عن الحرب الوندالية، الكتاب الثاني، الفصل الثالث عشر.

(بالمصرية، «بلاد الشمال»، وهو مصطلح كان يشمل بالتأكيد مع الليبيين مختلف شعوب ساحل البحر الأبيض المتوسط).[1]

الأمر اللافت للنظر هنا هو أن هذه الشعوب نفسها هي التي كان يُعتقد أنها تمثل الأعراق الشقراء أو الصهباء في شمال أوروبا، في النقوش البارزة الشهيرة التي تصور، وفقًا للمصريين، الأصناف البشرية الأربعة الرئيسية، والتي تزين مقابر الملوك في بيبان الملوك، بالقرب من طيبة. ولم يكن للرأي أن يخطئ في ذلك كثيرًا، حيث إن مصطلح «تامهو» (Tamhou) طبقه شامبليون الشاب على أمم ذات بشرة بيضاء، وعيون زرقاء في الغالب، وشعر بني أو أشقر أو أحمر، وهذه السمة الأخيرة خاصة بأعراق شمال أوروبا.[2] ولكن، كما يلاحظ السيد دي روجيه، «بعد دراسة متأنية، سرعان ما ندرك أن المصريين اختاروا لتمثيل ‹التامهو› كنموذج تقليدي الفرع الذي كانوا يعرفونه أفضل من غيره، أي الأقرب إلى حدودهم، وهو الليبي. فتسريحة الشعر مميزة (تلك الخاصة بـ‹الماكاي› عند هيرودوت).» ويواصل السيد دي روجيه: «يبقى من المؤكد أن العرق القديم الذي كان يحتل شمال أفريقيا كان بمثابة نموذج للفنانين المصريين لتصوير ‹التامهو›، وأن هذه الشعوب كانت لا تزال تظهر في تلك الفترة بالمظهر العام لعرق ذي بشرة بيضاء جدًا وشعر أشقر في كثير من الأحيان.»[3]

يمكننا فهم الأهمية الكاملة لهذه التوضيحات. ونلاحظ علاوة على ذلك أن أنواع الأعراق البشرية الممثلة على مقابر الأسرة الثامنة عشرة، في وادي بيبان الملوك، تعود على الأقل إلى القرن السادس عشر قبل عصرنا، وبالتالي فإن الشعب الأشقر الذي تم تصويره هناك تحت اسم «التامهو»، إذا اعتبرناه مهاجرًا، لا يمكن أن يكون قد وصل إلى شواطئ

1- دي روجيه، مقتطف من مذكرة حول الهجمات الموجهة ضد مصر، إلخ، في المجلة الأثرية، السلسلة الجديدة (يونيو، ديسمبر 1867)، المجلد السادس عشر، ص. 35 وما بعدها، 82.

2- شامبليون، رسائل مكتوبة من مصر والنوبة، في 1828 و1829، ص. 204 وما بعدها؛ باريس، 1868. قارن مع شامبليون-فيجاك، مصر القديمة، في سلسلة «الكون»، ص. 29-31؛ باريس، 1843.

3- المرجع المذكور، الموضع المذكور أعلاه، المجلد السادس عشر، ص.82-83.

أفريقيا حوالي القرن الخامس عشر أو الرابع عشر، أو تحت حكم سيتي الأول ورمسيس الثاني، كما يُقال.[1] ومع ذلك، فإن القول بأن هذه الشعوب الشقراء أو الصهباء في ليبيا كانت في الأصل غريبة عن الأرض، وخاصة أنها أتت من المناطق الشمالية لأوروبا، سيكون تجاوزًا لما يمكن استنتاجه من هذه الوثيقة الثمينة أو ما تبقى منها. يعتقد الجنرال فيديرب أنه يمكن القول إنهم «أتوا بالتأكيد عبر إسبانيا وربما عبر إيطاليا واليونان.[2] ومع ذلك، فإن نقش مرنبتاح المشوه، كما قدمه السيد دي روجيه، لا يقدم أي تفسير في هذا الصدد. يقول فقط إن شعوب الغزو هذه «أتت من البحر»، وأنها انضمت إلى «الريبو» أو «الليبو» (الليبيين) للاستيلاء على مصر، وأنه كان من بين هؤلاء الأخيرين على وجه الخصوص «الماشواش»، الذين كانوا مع «الليبو» آنذاك أهم سكان شمال أفريقيا، كان مظهرُهم شَقرًا. ألا يمكن، في الواقع، أن تكون هذه الأمم، بافتراض أنها من أصل أجنبي، قد غادرت مساكن أخرى غير أقصى شمال أوروبا؟ لنتذكر أن «القيمريين» عند هيرودوت كانوا مستقرين في منطقة القرم، بالقرب من مضيق البوسفور القمري وبحر آزوف.[3] وهناك أيضًا كانت توجد ليبيا يسكنها ذوو الرؤوس الكبيرة، «ليبيا فوق كولخيس»، حسب سودا، نقلاً عن باليفاتوس، وربما ليبيون - مستعمرات ليبية.[4] وبما أن السكيثيين والقيمريين والسارماتيين والجيت قد احتلوا هذه المناطق المجاورة لمستنقع ميوتيس، ألا يمكن أن تكون هذه الشعوب ممثلة في هؤلاء الليبيين ذوي العيون الزرقاء والشعر الأشقر أو الأحمر، وأنه قبل

1- لينورمان، دليل التاريخ القديم للشرق، المجلد الثالث، ص. 155، قارن مع المجلد الأول، ص. 427-432؛ باريس، 1869. فيدهيرب، حول إثنوغرافيا شمال أفريقيا، في نشرات جمعية الأنثروبولوجيا، 1870، السلسلة الثانية، المجلد الخامس، ص. 49

2- نفس المرجع. قارن معه، حول المقابر المغليثية وحول شقر ليبيا، نفس المرجع، 1869، السلسلة الثانية، المجلد الرابع، ص. 537-538.

3-الكتاب الرابع، الفصل الثاني عشر وفي مواضع متفرقة.

4- معجم، في مادة «ماكروكيفالوي». انظر مورو دي جونيس، «الإثنوغرافيا القوقازية»، ص. 215، 251، 262؛ باريس.1861.

هجراتهم المعروفة تاريخيًا، اتجه سرب أو أكثر منهم نحو أفريقيا؟ هذه ستكون أسئلة مطروحة.

مهما كان الأمر، فإن بناء «الدلمنات» والتلال (tumulus) وغيرها من الآثار الجنائزية التي اكتُشفت بأعداد كبيرة جدًا قبل بضع سنوات في جميع أنحاء شمال أفريقيا يُنسب إلى هذه الشعوب الليبية القديمة، التي تُعتبر دائمًا غريبة عن الأرض، أو قادمة من الشمال. وبما أن هذه الآثار لها نظائر في أوروبا، فمن هناك يُستمد أصلها. في فترات مختلفة، يُقال إن عرقًا واحدًا قد بنى دلمنات الشمال، وخاصة شمال غرب أوروبا، وتلك الموجودة في بلاد الغال وأفريقيا، ويبدو أن الأخيرة بشكل عام أحدث من سابقاتها. وفي هذا، ألا ينبغي أن نرى، كما يقول السيد أ. برتراند، «المراحل المختلفة لعرق واحد، يفر من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، هربًا من غزو الفاتحين الذين يستعير منهم، في طريقه، جزءًا من حضارتهم؟» ويميل هذا الزميل العالم إلى الاعتقاد «أن العرق الذي بنى دلمنات فرنسا هو نفسه الذي بنى دلمنات بوميرانيا، وهانوفر، والدنمارك، وإنجلترا.» ويقول أيضًا إن «التوزيع الجغرافي للدلمنات، عندنا، يجب أن يجعلنا نفترض أن هذا العرق وصل إليها عن طريق البحر.»[1] ولكن البعض يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير عندما يخمن أن هذه الآثار من أصل غالي؛[2] أو حتى، مع السيد هـ. مارتان، أنها قد تكون من عمل السلتيين، فاتحي إسبانيا، الذين عبروا منها إلى أفريقيا، والذين ربما كانوا «أولئك الليبيين الشقر الغامضين» في التحالف الكبير ضد مصر، أي «التامهو» عند المصريين.[3]

1-فيرو، الآثار المسماة سلتية في مقاطعة قسنطينة، في مجموعة إشعارات ومذكرات الجمعية الأثرية بقسنطينة، سنة 1863، ص. 214 وما بعدها.

2-عن العرق الذي بنى الدولمنات، في نشرات جمعية الأنثروبولوجيا، 1867، السلسلة الثانية، المجلد الثاني، ص. 385.

3-عن أصل الآثار المغليثية، في المجلة الأثرية، 1867، السلسلة الجديدة، المجلد السادس عشر، ص. 394-395؛ قارن معه، حول الآثار المغليثية، إلخ، في نشرات جمعية الأنثروبولوجيا، 1867، السلسلة الثانية، المجلد الثاني، ص. 168.

دون أن ننكر قيمة الحقائق التي تستند إليها هذه الآراء، ورغم أن الحل النهائي للمشكلة لا يزال يتطلب الكثير من الإيضاحات، فإننا نقول مع ذلك إننا لا نشارك هذه وجهات النظر. الفرضية التي تروق لنا أكثر، والتي يبدو أن العديد من المعطيات تدعمها، هي أن عرق الدلمنات، إذا كان هناك وحدة عرقية، وبافتراض أنه في الجزائر هو عرق غزاة مصر، وهو ما نعتقده أيضًا، لم يتحرك من الشمال إلى الجنوب، بل من الجنوب إلى الشمال، وأنه ليس سوى عرق أصلي أو عرق مجموعة من الشعوب التي نشأت في الأطلس. وبعيدًا عن أن يكون استخدام هذه المدافن قد أُدخل إليهم أو استقبلوه، فإنهم هم المبادرون الذين نقلوه إلى الأمم الأخرى.

وإذا ثبت أن تلك الآثار الجنائزية الأبعد عن مركز إشعاعها الظاهري في أوروبا هي الأقدم أو الأكثر بدائية، أي تلك التي تعود إلى العصر الحجري والبرونزي، بينما تنتمي آثار أفريقيا إلى العصر الحديدي، فذلك لأن الأولى تعود بالفعل إلى حقبة أسبق، وهي حقبة أقدم هجرات شعب الأطلنطيين، الذين يسميهم ديودوروس «أكثر رجال تلك البلاد تحضرًا»،[1] والذين اعتبرهم القدماء ملاحين مهرة. علاوة على ذلك، فإن الدلمنات أقل كثافة بشكل عام، وربما أقل عددًا في أجزاء مختلفة من أوروبا مقارنة بأفريقيا. ألا يمكن فهم ذلك؟ هذه المستعمرات المهاجرة، كما يحدث عادة، انتهى بها الأمر إلى الاختفاء، في حين أن العرق الأم، الذي يعيش على أرضه، استمر في التقدم، وسار في طريقه، حتى اليوم المحدد لتلاشيه أو تضاؤله أمام الإثنوغرافيا، أو بالأحرى التاريخ.

هناك رأي آخر، وهو رأي السيد روجيه دي بيلوغيه، الذي يرى في الليغوريين، الذين تتم المطابقة بينهم وبين الليبيين، شعبًا من عرق أفريقي، «إخوة النوميديين، والمور، أي البربر،» ويرى فيهم صانعي «الأعمال المخيفة التي تطلبتها الآثار الميغاليتية.» لن نناقش هذا الرأي، ولكن كان من المهم ذكره.

1-الكتاب الثالث، الفصل 54، قارن مع الفصل 56.

كما تم اعتبار غزاة مصر آريين، دون أن يكونوا سلتيين. الأصل الآري يحظى بشعبية كبيرة. بل إن السيد لينورمان يقول إن سالوست «يجعل من هؤلاء الغزاة فرسًا، وميديين، وأرمنًا يشكلون جيش هرقل، مما يشير بوضوح إلى أنه كان يعرف أصلهم الآري.» ويبدو أن السيد أ. برتراند ليس بعيدًا عن نسبة الآثار الميغاليتية الجزائرية إلى هذه الشعوب نفسها.[1] سنعود إلى رواية سالوست هذه. ولكن فيما يتعلق باعتبار بناة الدلمنات بشكل عام، وخاصة في أوروبا، من أصل آري، فمن المعروف أن هذا الرأي غير مقبول لدى علماء الآثار في الشمال، ولا لدى السيد برتراند نفسه.[2] ونحن أيضًا من بين أولئك الذين يعتقدون أن معظم هذه الآثار، في شمال أوروبا وبلاد الغال كما في الجزائر، هي من فترة ما قبل الآريين.

أما «التامهو»، فقد كانوا بالتأكيد شقرًا أو صهبًا. وإذا خرج هذا الشعب البدائي من أحضان الأطلس القديم، كما نفترض، فإنه لا يزال لديه عينات في مومياوات الغوانش، وممثلون، بأعداد كبيرة إلى حد ما، بين أمم القبايل. وقد تم جمع الكثير من الجماجم من هذه الدلمنات، وتم التعرف على أن «ثلثي على الأقل» من تلك التي أحضرها السيد بورغينيا من رقنيا «تنتمي إلى السلالة القبايلية أو البربرية.» وهكذا، فإن الجنرال فيديرب، بناءً على ملاحظاته الخاصة، لا يشك في أن معظم الجماجم المستخرجة من هذه المقبرة هي من أصل محلي.[3] ولكن من المهم جمع أكبر عدد ممكن منها من جميع أنحاء شمال أفريقيا، ودراستها بعناية. لأن

1-المرجع المذكور، الأنماط الغالية، إلخ، ص. 300 وما بعدها؛ نفس المرجع، العبقرية الغالية، ص. 535 وما بعدها، 539-541.

2- لينورمان، المرجع المذكور، مجلد 3، انظر ص. 111، 165. برتران، «حول حفريات رقنية»، في نشرات جمعية الأنثروبولوجيا، 1888، السلسلة الثانية، مجلد 3، ص. 629-630. انظر بورغينيا، «تاريخ المعالم الميغاليتية في رقنية»، ص. 57 وفي مواضع متفرقة؛ حجم القطع الربعي (in-4°)، باريس، 1868.

3-عن العرق، إلخ، المرجع المذكور أعلاه، المجلد الخامس، ص. 379 وما بعدها؛ نفس المرجع، الآثار البدائية في بلاد الغال، في المجلة الأثرية، السلسلة الجديدة، 1863، المجلد السابع، ص. 234-235. قارن مع فيدهيرب، حول المقابر المغليثية، إلخ، المرجع المذكور أعلاه، السلسلة الثانية، المجلد الرابع، ص. 838-539.

الأدلة تكمن في هذا النوع من الأبحاث المقارنة. علاوة على ذلك، يمكن للمرء أن يتساءل أي عرق، مهما كان عدده، هاجر من أقصى شمال أوروبا، كان سيتكاثر إلى درجة تغطية الأرض بمقابره، في هذا المناخ القاتل للأوروبيين الشماليين الحاليين. هل سيقال إن درجة حرارة شمال أفريقيا في تلك العصور الغابرة كانت أقل ارتفاعًا، وأن مناخ رقنيا، على سبيل المثال، كان أكثر برودة ورطوبة مما هو عليه في عصرنا؟ لكن بلادنا أيضًا شهدت فترات من البرد؛ وسيكون من الضروري معرفة ما إذا كانت هذه الاختلافات المناخية تبتعد كثيرًا عما هي عليه اليوم. ويمكن للمرء أن يتساءل بشكل خاص عما حل بلغة هذه الأمم التي نشأت في شمال أوروبا، والتي كانت على الأرجح غازية؟ سواء فرضوها على المهزومين، واستوعبوا لغتهم إلى حد ما، كما في الغزوات الآرية، كما يُروى، أو تبنوا لغة السكان الأصليين، لكانت قد بقيت من عمليات الاستبدال هذه آثار لا وجود لها. فكل البربر غير المستعربين يتحدثون لهجات بربرية؛ وخصائص أقدم النقوش، تلك المسماة بالليبية، تشبه إلى حد كبير خصائص نفس الكتابة المحفوظة والتي عُثر عليها لدى التوارق.

نعلم أن الدلمنات تكثر في المغرب. وسيكون من الضروري البحث فيما إذا كانت توجد، كما توجد كهوف المومياوات والتلال، في جزر الكناري، التي سكنها هذا الشعب الأصلي العظيم، الذي كان جزء منه من عرق أشقر. ومن يدري، ربما كان أسلافهم من سكان أتلانتس؟ من يدري ما إذا كانوا لم يعرفوا أمريكا القديمة، حيث يتم اكتشاف الكثير من التلال، كما هو الحال في كل مكان تقريبًا، وحيث تظل العديد من الأهرامات ذات الأبعاد العملاقة، خاصة على ضفاف المسيسيبي وروافده، ألغازًا؟ ما لا يبدو موضع شك هو أن الأطلنطيين، هؤلاء الأبناء المدللون لنبتون، أرسلوا، من أجل العلاقات التجارية، مستعمرات بعيدة على سواحل المحيط، في البرتغال، وأرموريكا، وكورنوال، وويلز، وربما في أيرلندا وأماكن أخرى، بين شعوب أخرى، ومن المعترف به أنهم ربما استقوا

منهم هذه العادة، التي نقلوها إلى وطنهم. وبالمثل، يمكن تصور أنهم ربما استقبلوا من هذه البلدان نفسها مستعمرات من الشعوب التي تبني الدلمنات، وكانوا مقلدين لهم.

على أي حال، لا يمكن التأكيد على أن عادة مشتركة بين عدة أعراق تنتمي بالضرورة إلى إحداها، التي تكون قد نقلتها أو تلقتها، وبالتالي فإن عادة بناء الدلمنات في أوروبا وأفريقيا مشتقة حتمًا إحداها من الأخرى. ألم تكن لجميع البشر نفس الاحتياجات، كما أن لديهم نفس القدرات؟ كم من الشعوب المختلفة نحتت الصوان أووشمت نفسها؟ كم منها عبد الناروالنجوم؟ وأخيرًا، ألم يكن لديهم جميعًا تقديس القبر، الذي تعد أهرامات مصر أروع وأفخم تعبيرعنه؟ - مهما كان الأمر، فإننا نعرض وجهات النظرهذه على زملائنا، آملين أن تُعتبرجديرة بدراستهم.

هناك هجرة كبرى لشعوب متنوعة، تنبع من آسيا، بين البحر الأبيض المتوسط والفرات، ويبدو، وفقًا لبعض المؤرخين، أنها تتعلق بغزو العائلات الكنعانية. وفقًا لبروكوبيوس، فإن شعوب أرض كنعان، الذين عبروا إلى أفريقيا في زمن يشوع، خليفة موسى، «احتلوها بالكامل، من مصر إلى أعمدة هرقل، وجعلوها صالحة للسكن، ببناء عدد كبير من المدن، لدرجة أنه حتى يومنا هذا»، كما يقول، «يتحدث الأفارقة اللغة الفينيقية. وقبل مجيئهم إلى أفريقيا، كانت تسكنها شعوب أخرى، وبعد أن بقوا فيها لفترة طويلة جدًا، كان يُعتقد أنهم سكانها الأوائل. وبعد ذلك، لجأ أولئك الذين جاءوا مع ديدون إلى أفريقيا، كبلد يسكنه حلفاؤهم وأقاربهم، وبإذن منهم بنوا قرطاج وأصبحوا سادتها.»[1] هؤلاء السكان الأوائل، كما قلنا، سماهم سالوست، أو بالأحرى هيمبسال.

من ناحية أخرى، نقرأ في الإدريسي أن «البربركانوا يسكنون فلسطين قديمًا، في عهد جالوت (جالوت)» سليل «بر» و«مصر». ويضيف: «داود (عليه السلام)، بعد أن قتل جالوت البربري، عبر البربر إلى المغرب،

1- برونر-باي، في بورغينيا، المرجع المذكور، ص. 42.

ووصلوا إلى أقصى أطراف أفريقيا وانتشروا فيها.»[1] وهذا هو أيضًا رأي البكري، الذي يتفق مع المسعودي، بينما يرى عرب آخرون أن يشوع هو الذي طرد هذه الشعوب من سوريا.[2] وبافتراض صحة كلتا الروايتين، فإنهما تشيران إلى غزوتين مختلفتين تمامًا للفلسطينيين (الفلستيين)، حيث تختلف حقبتا يشوع وداود اختلافًا كبيرًا.

تشهد على هجرات كنعان والبلدان المجاورة بعض التقاليد وأسماء القبايل التي تذكر بهذا الأصل. يعلمنا القديس أوغسطين أن سكان ضواحي هيبون في عصره كانوا يقولون إنهم كنعانيون: «عندما يُسأل فلاحونا عن أصلهم، يجيبون باللغة البونيقية «كناني»، وبطبيعة الحال مع تحريف حرف واحد كما هو معتاد في مثل هذه الحالات، فبماذا يجيبون غير أنهم «كنعانيون»؟» في مكان آخر، نرى أن هذا الأسقف كان يبحث لمنطقة هيبون عن كاهن على دراية باللغة البونيقية أو الفينيقية، `Punicâ linguâ esset instructus`، ووجده في رجل عجوز «الذي كان آنذاك رئيس أساقفة نوميديا».[3] وهكذا، وفقًا للسويدي غرابيرغ دي هيمسو، لا يزال «الشلوح» في المغرب يعتبرون أنفسهم أحفادًا مباشرين للسكان الأصليين في أقصى الغرب.

معتبرين «البرابرة» (Beràber) من الفلستيين (Filisiei)، أي أن أصلهم من فلسطين، من نسل مصرايم وكَسْلُوحيم، بينما يفتخرون هم أنفسهم، `si gloriano`، بكونهم الأقارب الحقيقيين لـ«أمازيغي-برانس»، أبناء «مازيغ».[4]

1-أبحاث أنثروبولوجية حول المقابر المغليثية في ركنية، في نشرة أكاديمية هيبون، 1868، العدد 4، ص. 59-60، 69 وما بعدها.

2-بورغينيا، المرجع المذكور، ص. 84 وما بعدها.

3-المرجع المذكور، الكتاب الثاني، الفصل العاشر؛ ترجمة فرنسية، ص. 296-298؛ باريس، 1670. قارن مع موسى الخوريني، التاريخ الأرمني، ترجمة لاتينية، الكتاب الأول، الفصل 18، ص. 47؛ لندن، 1736. سويداس، المرجع المذكور، في مادة «كنعان».

4-مسح جغرافي وإحصائي لإمبراطورية المغرب»، ص. 78؛ جنوة، 1834. «القبايل واستعمار الجزائر»، ص. باريس،

وحتى اليوم، يُقال إن الحاخامات الجزائريين يطلقون على القبايل اسم الفلستيين (Paleschtin)؛[1] وبين هؤلاء، ليس اسم «ابن كنعان» نادرًا.[2] بعض القبايل أو فروع القبايل، مثل قبائل آيت بو يوسف، وفقًا للتقاليد المحلية، كانت تعتنق اليهودية التي جاءت بها من سوريا.[3/4] من ناحية أخرى، يُعتبر بنو مزاب (المزابيون)، الذين يتميزون بملامحهم وعاداتهم ولهجتهم، والذين ليسوا مسيحيين ولا مسلمين، كما يقول العرب، ولا يتزوجون إلا فيما بينهم، منحدرين من الموآبيين، الذين أخضعهم داود واضطهدهم. وبالمثل، يُقال إن إخوتهم، العمونيين، الذين طردهم الإسرائيليون أيضًا من بلادهم، كانوا ممثلين بـ «الأمونيين»، وهم اليوم «الأموني». وقيل إن قبيلة «فليسة»، التي نكتبها عادة «فليسة»، تشهد أيضًا باسمها على قرابتهم بالفلستيين.[5] يمكننا أن نعدد هذه المقارنات. لكن، بشكل عام، نعتقد أنه لا يمكن للمرء أن يكون حذرًا بما فيه الكفاية في الاستنتاجات التي تُستخلص من تشابه الأسماء؛ فليس هناك شيء لا يمكن رؤيته من خلال سراب الاشتقاقات اللغوية.

ما سنقوله أيضًا هو أنه في تقرت، بين السكان الذين يختلط فيهم الدم الزنجي بشكل عام، مثل «الرواغة» (من وادي ريغ)، توجد حوالي ستين عائلة بيضاء، أشار إليها بالفعل القنصل هودجسون، `a distinct race of white people`، أي «عرق متميز من البيض»، والتي تقول التقاليد إنها تنحدر من مهاجرين إسرائيليين قدامى اعتنقوا الإسلام. ويضيف أنهم لا يتحدثون إلا العربية، `only the Arabic language`. يُقال إن هذه العائلات مستقرة في البلاد منذ زمن سحيق، وأنها، متبعة بلا شك في ذلك تقاليد أسلافها، حافظت على نقائها بعدم التزاوج إلا

1-القبايل واستعمار الجزائر، ص. 251-253؛ باريس، 1867.

2-المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 203.

3-بيليسييه، الحوليات الجزائرية، المجلد الأول، ص. 273؛ باريس، 1852.

4-ابن خلدون، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 176.

5- رسالة إلى الرومان، شرح غير مكتمل، المجلد الثالث، الجزء الثاني، ص. 925، باريس، 1836. نفس المرجع، الرسائل، الرسالة 209، الفقرة 6، قارن مع الرسالة 108، الفقرة 14.

فيما بينها.[1] هناك غزو آخر، يمكن الطعن في وجوده، وهو غزو العرب السبئيين، بقيادة «إفريقش»، من «قيس بن صيفي»، أحد أمراء حمير القدماء في اليمن، والذي يقال إنه أعطى اسمه لـ «إفريقية» (ولاية تونس). في الواقع، يقول مؤلف عربي إن «الحميريين لم يكن لهم طريق للوصول إلى المغرب إلا من خلال الروايات الكاذبة للمؤرخين اليمنيين.» وابن خلدون، الذي يروي هذه الشهادة، لا يضعفها. بالنسبة له، الرواية الأكثر أصالة هي أن البربر ينحدرون من كنعان، ابن حام، ابن نوح. «كان جدهم يُدعى مازيغ؛ وإخوتهم هم الجرجسيون؛ والفلسطينيون، أبناء كسلوحيم، ابن مصرايم، ابن حام، كانوا أقاربهم. وكان الملك بينهم يحمل لقب جالوت.» ومع ذلك، يلاحظ أنه في الأسرة الكبيرة لـ «البرانس»، وفقًا لابن الكلبي وغيره من علماء الأنساب العرب، فإن قبيلتي كتامة وصنهاجة «لا تنتميان إلى العرق البربري، بل إلى السكان اليمنيين الذين أقامهم إفريقش بن صيفي في إفريقية.» وهو نفسه يشارك هذا الرأي، رغم قوله إن إفريقش بعد أن غادر البلاد التي سيطر عليها، فإن هذين الشعبين، كتامة وصنهاجة، «أصبحا بربرًا تدريجيًا واختلطا بهذا العرق، لدرجة أن سلطة العرب في إفريقية اختفت تمامًا.»[2] ومن الجيد أن نلاحظ، فيما يتعلق بقبائل أخرى، أن الإدريسي لم يعبر عن رأي مختلف كثيرًا في هذا الموضوع. يقول إن بعض «هوارة» «تجنسوا بالبربرية نتيجة لجوارهم وعلاقاتهم مع السكان الأصليين»؛ ويقدم نفس الملاحظة بشأن «زناتة»، الذين يقال إنهم، وفقًا لأنسابهم، «كما رُويت، من نسل جالوت و»بر». كان الزناتة في الأصل عربًا من عرق نقي؛ ولكن، نتيجة للزيجات التي عقدوها مع جيرانهم المصامدة، أصبحوا هم أنفسهم بربرًا.»[3]

أما عن حملة إفريقش، ابن قيس بن صيفي، فيقول آخرون، مع

1- في «نشرات الجمعية الفلسفية الأمريكية»، السلسلة الجديدة، مجلد 2، ص. 2؛ حجم القطع الربعي، فيلادلفيا. انظر دينيران، «الصحراء الجزائرية»، ص. باريس، 1845.

2-المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 168، 27-28 وما بعدها

3- المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 212، 234.

المقريزي، «أفريقيس» أو «أفريقش بن أبرهة بن ذي القرنين»،[1] ذلك الفاتح الصغير الذي حالفه الحظ بأن يورث اسمه لأفريقيا، كما فعل فسبوتشي لأمريكا، فلسنا من أولئك الذين يعتبرونها خيالية تمامًا. ونحن نؤمن بها بسبب آثار العناصر الجديدة، ولا سيما اللغة، التي جلبتها هذه الهجرة، أو أي هجرة أخرى من نفس الأصل، حيث كانت اللغة العربية مستخدمة في شمال أفريقيا قبل فترة طويلة من الغزو الإسلامي.[2] لم يعتقد كوسان دي برسفال أن هذه كانت خرافة، ويشير إلى أنه في قائمة ملوك اليمن، نجد أن حكم «أفريقوس» أو «أفريقيس»، ابن أبرهة، يبدو أنه كان بين عامي 60 و40 قبل عصرنا. ربما يكون هذا مجرد مثال على ما تقدمه الروايات العربية من جهل وتناقضات. ولكن من الواضح،[3] علاوة على ذلك، أن هذه الشخصية الأخيرة ستكون مختلفة عن الأولى، التي قد يعود وجودها إلى زمن الهكسوس. أحدهما أعطى اسمه لأفريقيا، بينما الآخر تلقاه على الأرجح كلقب.

دعمًا لهذه الرواية حول إقامة الحميريين أو السبئيين القدماء في شمال أفريقيا، يمكننا أن نتذكر أن عبادة النجوم والشمس والقمر كانت موجودة لدى الليبيين القدماء، كما تشهد على ذلك نقوشهم الجنائزية عند الحاجة.[4] بل نجد آثارًا لها في عادات بعض القبايل الحالية. صحيح، مع ذلك، أن هذه العبادة، التي كانت منتشرة جدًا في الماضي، قد لا تكون من أصل أجنبي. هنا، كما في العديد من التعبيرات العرقية الأخرى، ربما

1- القيرواني، تاريخ إفريقيا، ترجمة فرنسية بقلم بيليسييه ورينو، ص. 41-42 والملاحظة، وص. 98، باريس، 1845.

2-ديربيلو، المكتبة الشرقية، مادة «إفريقيا». قارن مع كاردون، تاريخ إفريقيا وإسبانيا، إلخ، المجلد الأول، ص. 5، ملاحظة؛ باريس، 1765. بيليسييه، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 252-253.

3-مقالات عن تاريخ العرب قبل الإسلام، المجلد الأول، ص. 67-70؛ باريس، 1847.

4- هيرودوت، الكتاب الرابع، الفصل 188. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ترجمة فرنسية بقلم جان تيمبورال، ص. 67 وما بعدها؛ باريس، 1830. رينو، غزو السراسنة لفرنسا، إلخ، ص. 222؛ باريس، 1836. دي روجيمون، عصر البرونز أو الساميون في الغرب، ص. 243 وما بعدها؛ باريس، 1866. قارن مع باصيه، مجموعة نقوش ليبية-بربرية؛ باريس، 1870.

التقت الشعوب دون أن يقلد بعضها بعضًا ودون أن يكون للنسب أي دور في ذلك.

من جانبه، يروي ليون الأفريقي، الجغرافي العالم من غرناطة، أنه وفقًا لبعض المؤلفين، فإن الفلسطينيين، «بعد أن طردهم الآشوريون»، عبروا إلى أفريقيا واستقروا فيها، وأنه، وفقًا لآخرين، يستمد الأفارقة «أصلهم الحقيقي من السبئيين، شعب بلاد العرب السعيدة،» وأنهم قادهم ملكهم «إفريقوس»، «فارين نحو مصر» وما وراءها، مطاردين من قبل الآشوريين أو الإثيوبيين. لكنه يضيف أنه، وفقًا لآخرين أيضًا، فإن الأفارقة «كانوا سكان بعض أجزاء آسيا، فارين أيضًا من أعدائهم، أولاً إلى اليونان، التي كانت غير مأهولة آنذاك، ثم أُجبروا على تركها، ليلقوا بأنفسهم في أفريقيا، حيث أقاموا.»[1] وهكذا، تتفق معلومات التاريخ وتلك التي تقدمها الإثنوغرافيا على إثبات الصراعات القديمة لهذه الشعوب على الساحل الأفريقي للبحر الداخلي (المتوسط).

يقسم ليون جميع سكان بلاد البربر ونوميديا، أو «بيض أفريقيا»، إلى خمسة شعوب، هي «صنهاجة، ومصمودة، وزناتة، وهوارة، وغمارة.» ويقول مارمول، وهو يذكر (بشكل مختلف قليلاً) هذه الشعوب (أو القبايل) نفسها، إنهم هم الذين يُطلق عليهم اسم «البربر»، «لأن مسكنهم الأول كان في بلاد البربر، في حين أن أولئك الذين كانوا من قبل في طنجة، ونوميديا، وليبيا يُسمون «شلوح».» وفي مكان آخر يقول: «يُسمى الأفارقة القدماء «شلوح» أو «بربر». ولغتهم لها ثلاثة أسماء: «شلحا»، و«تمازيغت»، و«زناتية».[2] لكن ليون يلاحظ أن هذه الشعوب «تتفق فيما بينها في لغة واحدة، يسمونها عادة «أقوال أمازيغ» (اللغة النبيلة).» ويقول إن هذه اللغة هي «اللغة الأفريقية الأصيلة»، وأنها

1-المرجع المذكور، الكتاب الأول، ص. 12-14

2- ليون، المرجع المذكور، ص. 19. مارمول، أفريقيا، ترجمة فرنسية بقلم بيرو دابلانكور، المجلد الأول، ص. 68، 92، قارن مع ص. 93؛ باريس، 1667.

ممزوجة بكلمات عربية.[1] ومع ذلك، يشير السيد دي سلان إلى أن هذين المصطلحين قد تُرجما بشكل سيء من قبل ليون، وأنهما لا يعنيان سوى «البلاد البربرية».[2] ما يبدو مؤكدًا، علاوة على ذلك، هو أن العديد من هذه القبايل قد ضربت جذورًا عميقة وأنتجت فروعًا عديدة، استمرت؛ لأن أسماءها، مع تحريفات أكثر أو أقل، لا تزال موجودة في نقاط مختلفة من الإقليم، في الجزائر، والصحراء، والمغرب، كما في تاريخ جزر الكناري. هناك، على سبيل المثال، «هوارة» بالقرب من المدية، و»صنهاجة» في ضواحي بجاية وفي دائرة «الإيدوغ»، و»زناتة» ليس بعيدًا عن تلمسان، في دائرة قسنطينة وفي الزاب؛ ويحمل آخرون هذا الاسم في بلاد توات. وقد رأينا للتو أن هذه القبايل هي من بين تلك التي يربطها مختلف المؤرخين في الأصل بأرض اليمن.

تُعتبر الهجرات الكنعانية والعربية حقيقة تاريخية راسخة، على الرغم من الغموض الذي يحيط بأصولها وتباين وجهات النظر بشأنها.

وفي أزمنة أخرى،وبعد تأسيس عتيقة ثم قرطاج، انتشر الفينيقيون القادمون من صور وصيدا وجبيل على السواحل الليبية وأسسوا فيها مستعمرات ومدنًا، مثل هيبو دياريتوس، وهدروماتوم، ولبدة.[3] ووفقًا لسكيلاكس وسترابون، فقد وسعوا مستوطناتهم من سرت، حيث كانوا يجاورون اليونانيين في قورينائية، حتى أعمدة هرقل؛ وإذا صدقنا رحلة حانون، فإن القرطاجيين أسسوا أيضًا مستعمرات ليبية-فينيقية على سواحل المحيط.[4] أخيرًا، من المحتمل أن أممًا أخرى قادمة من الشرق قد ابتعدت عن هذه الشواطئ الفينيقية نفسها، هاربة من أوطانها، والتي، وفقًا لأسطورة هرقل الصوري، أبحرت نحو غرب حوض البحر الأبيض

1-المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 19-20.

2- في ابن خلدون، المرجع المذكور، الملحق، المجلد الرابع، ص. 495.

3- سالوست، المرجع المذكور، الفقرة 19. قارن مع بليني، الكتاب الخامس، الفصلان الثالث والرابع.

4- سكيلاكس، المرجع المذكور، قرطاج، ص. 49-50. سترابون، الكتاب السابع عشر، الفصل الثالث، الفقرة 15.

المتوسط، أرض الغروب، بحديقة الهسبريدس، ومملكة أنتايوس، ابن أطلس. هنا، تختلط الأسطورة بالتاريخ وتسيطر عليه. ما نلمحه وسط هذه الخيالات هو دائمًا الثروة الرائعة لبلاد المغرب، وجاذبية الغزو التي ألهمتها للغزاة، والشجاعة التي لا تقهر للسكان الأصليين في الدفاع عن أراضيهم ضد هجمات الأجنبي.

سالوست، مرة أخرى نقلًا عن هيمبسال، ودون أن يضمن أي شيء بنفسه، يذكر ثلاثة من هذه الشعوب: الميديين، والفرس، والأرمن، الذين كانوا جزءًا من جيش هرقل، الذي مات في إسبانيا، وفقًا للأفارقة، `sicut Afri putant`، وبعد تشتت جيشه، عبروا إلى أفريقيا، واستقروا على السواحل الأقرب إلى البحر الأبيض المتوسط. يروي أن الفرس تقدموا أكثر نحو المحيط، وأنهم، بعد اختلاطهم بالجيتول، اتخذوا اسم النوميديين، `semetipsi Numidas appellavere`. يقول بليني أيضًا إن «الفاروسيين»، وهم شعب جيتولي، كانوا يُسمون قديمًا «الفرس»، ويمتدون، وفقًا لميلا، حتى إثيوبيا، ويضعهم سترابون وبطليموس أيضًا بعيدًا جدًا جنوب موروسيا وشمال جبل «روساديوس».[1] يضيف سالوست أن الميديين والأرمن انضموا إلى الليبيين، الذين، بلهجتهم البربرية، أطلقوا عليهم تدريجيًا اسم «المور» بدلاً من «الميديين»،[2] ها نحن أمام الكثير من المجاهيل في رواية مشوشة. على أي حال، يقدم النقد الحديث شكوكه هنا، ويعتقد أن من حقه استبدال هذه الأسماء الثلاثة لشعوب جبلية، زراعية، مستقرة ومسالمة بأسماء المديانيين، والفريزيين، والأموريين أو الآراميين، الذين تم صدهم بالفعل، بعضهم من قبل العبرانيين، والبعض الآخر من قبل الآشوريين، أو حتى من قبل

1-سالوست، المرجع المذكور، الفقرة 18. بليني، الكتاب الخامس، الفصل الثامن، في النهاية. ميلا، الكتاب الأول، الفصل الرابع، قارن مع الكتاب الثالث، الفصل العاشر. سترابون، الكتاب السابع عشر، الفصل الثالث، الفقرة 7. بطليموس، المرجع المذكور، الكتاب الرابع، الفصل السادس، والخريطة الإفريقية الثانية.

2-المرجع المذكور، الموضع المذكور.

غزوات المصريين.[1]

ولكن يجب التخلي عن محاولة فك تشابك هذه المسائل العرقية تمامًا، التي تفلت منا تفاصيلها الفردية، والتي لا يضيئها التاريخ إلا في مجملها. لقد تراكمت القرون، وتغيرت العادات إلى حد ما مع الأماكن؛ كل هذه الأمم تشابكت أو حتى اختلطت إلى حد ما؛ والخصائص البدائية تعرضت لتغيرات ربما كانت كبيرة. أخيرًا، جاءت فوق ذلك كله الغزوات الرومانية، والوندالية، والبيزنطية، التي طردت بعضها بعضًا على التوالي. وأمام هذا الكم من الأنقاض وهذا العدد من الصعوبات التي لا يمكن حلها، والتي يحلها كل شخص بطريقته، يشعر المرء بالارتياح عند التوجه إلى دراسة الحقائق الحالية.

هذه المساحة الشاسعة من السواحل والمناطق المجاورة لشمال أفريقيا كانت مأهولة منذ القدم، بخصائص احتلال مختلفة، من قبل عدد كبير من الأسراب الأجنبية، ولا سيما من أصل سوري-عربي، والتي أُجبر السكان الأوائل، الذين نعتبرهم من الأطلنطيين، على التراجع أمامها. لا شك أن ما حدث أكثر من مرة، وربما بشكل معتاد، هو أن هذه العائلات من المستعمرين أو التجار عاشت منعزلة ودون اختلاط مع السكان الأصليين. هذا هو القانون العام، الذي تمنحه عبقرية شعوب هذا البلد تأكيدًا مذهلاً. فالأجانب، بالنسبة لهذه الشعوب على وجه الخصوص، هم دائمًا أعداء. وإذا كان العرق العربي قليل الميل إلى التزاوج، وإلى العلاقات الدولية، ولا يريد أن يُخترق، فالأمر لا يختلف كثيرًا بالنسبة للقبائلي، الغيور على أرضه والذي يدافع عن ممتلكاته. وهكذا، فإن الرومان، وخاصة الوندال والبيزنطيين، لم يفعلوا سوى المرور، مدمرين ومحاربين، كما فعل الأتراك لاحقًا، دون أن يندمجوا أبدًا في الأرض.

صحيح أن الفتح الإسلامي قد سهّلته بعض التشابهات في العادات،

1-مينيو، المذكرة الثانية والعشرون حول الفينيقيين، في «مذكرات الأكاديمية الملكية للنقوش والآداب»، سنة 1786، المجلد 42، ص. 336.

وأن العرب، الذين كان أسلافهم يعيشون على طريقة الجيتول، وجدوا هناك حلفاء طبيعيين، بالإضافة إلى الجبال والرمال، وأشجار النخيل، والخيول والجمال التي في الحجاز ونجد. ووجدوا هناك، ضمن حدود معينة، استخدام اللغة العربية، التي كانت تُتحدث على هذه السواحل، كما قلنا، قبل هذا الفتح بفترة طويلة؛ وربما وجدوا هناك أيضًا تعدد الزوجات والختان. لا شك أن الأمر لم يكن كذلك، بنفس الدرجة، بالنسبة للغزوات الآسيوية القديمة. ولكن، مهما كانت الكراهية التي قد تكون موجودة بين أمم مختلفة، بين المنتصرين والمهزومين، يمكننا أن نعتقد أنه مع مرور الوقت، حدث تقارب بين أسياد الأرض والمهاجرين، الذين كان لا بد من إفساح المجال لهم، وأن من بين الشعوب القديمة، تم صد البعض، إذا لم ينسحبوا إلى جبالهم المنيعة، بينما تجمعت الأخرى وتحالفت إلى حد ما مع الوافدين الجدد.

بالإضافة إلى ما قلناه عن القبايل العربية التي قيل إنها أصبحت بربرية، لدينا، كشاهد على وقائع مماثلة في العصور القديمة، الوجود التاريخي لمجموعات سكانية مختلطة أو ممتزجة إلى حد ما، مثل الليبيين-الفينيقيين، والإثيوبيين البيض، والجيتول السود، وهي أمم كان من المفترض أن تميل إلى الاختفاء بسبب أصلها الهجين المفترض، ما لم يكن هناك استمرارية في التجدد. الليبيون-الفينيقيون، `Λιβυφοἰνικες` عند ديودوروس، كانوا يحتلون، تحت حكم القرطاجيين، العديد من المدن البحرية، وكانت أراضيهم، وفقًا لسترابون، تمتد حتى جبال جيتوليا.[1] ويضع بليني الإثيوبيين البيض، `Leucæthiopes`، وراء الجيتول والليبيين-المصريين، ويضعهم ميلا بين هؤلاء وأولئك، ويضعهم بطليموس بعيدًا جدًا في الصحراء، جنوب جبل «ريساديوس»، باتجاه المحيط.[2] أما بالنسبة للجيتول السود أو «الميلانو-

1- ديودوروس، الكتاب 20، الفصل 57. سترابون، الكتاب 17، الفصل الثالث، الفقرة 19. قارن مع بطليموس، المرجع المذكور، الكتاب الرابع، الفصل الثالث.

2- بليني، الكتاب الخامس، الفصل الثامن. ميلا، الكتاب الأول، الفصل الرابع. بطليموس،

جيتول»، الذين يقعون جنوب جيتوليا، وفقًا لبطليموس، والذين يسميهم السيد ب. دوبرات «ليبيين-إثيوبيين»، معتبرًا إياهم «الإثيوبيين البيض» عند ميلا،[1] فإننا نعتقد أنهم بالأحرى نتاج اختلاط الجيتول بالإثيوبيين أو السود، جيرانهم، آنذاك كما هو الحال اليوم.

ولكن الدليل الإضافي على أن هذه التدفقات والانحسارات للشعوب المختلفة قد تركت بصماتها على السكان القدماء هو أنه، بغض النظر عن سكان المدن، فإن هؤلاء السكان، لا سيما في البلدان المفتوحة، بعيدون كل البعد عن أن يكونوا متجانسين، على الرغم من أن الأنواع ليست مختلطة لهذا السبب. وهذه الملاحظة الأخيرة تنطبق أيضًا على معظم المجموعات الأصلية، التي نرى في وسطها غالبًا عناصر مختلفة تعيش كل منها حياتها الخاصة، وفي نفس الوقت حياة مشتركة، وبالتالي تحافظ على خصائصها العرقية داخل التجمعات.

سنستشهد كمثال بقبيلة «الشاوية» الكبيرة «أولاد عبد النور»، في محافظة قسنطينة، بين هذه المدينة وسطيف، حيث لاحظنا (في عام 1840) أكثر الخصائص الجسدية تنوعًا. في إحدى هذه الاحتفالات المسرحية حيث يتم استعراض جميع الفرسان ويشاركون في مناوراتهم التي تسمى «الفانتازيا»، لم نكن مندهشين بشكل عادي عندما وجدنا هناك ملامح شبه منغولية، تذكرنا ببعض ميليشيات الأتراك، إلى جانب ملامح بيضاء نقية لوجوه تمثل بالتناوب الأنواع البربرية، والعربية، والوندالية، وحتى اليونانية، ونسبًا لا تقل اختلافًا في بنية الجسم؛ وأخيرًا جميع درجات الألوان، من اللون المائل للسواد إلى لون الأعراق الشقراء. هذه القبيلة، التي يوجد فيها أيضًا قبائل وعرب، كان لها تأثير قليل، على الرغم من قوتها العددية، ولم تكن تحظى بتقدير كبير، بسبب أصلها

المرجع المذكور، الكتاب الرابع، الفصل السادس، والخريطة الإفريقية الثانية.

1-بطليموس، المرجع المذكور، الكتاب الرابع، الفصل السادس. دوبرات، مقال تاريخي عن الأعراق القديمة في أفريقيا الشمالية، ص. 220؛ باريس، 1845.

الشاوي.[1] وقد قمنا بملاحظة مماثلة على «الصبايحية» في قسنطينة، وهم فرسان الباي القدامى، من الأتراك، والكراغلة، وخاصة العرب، حيث قدم لنا هؤلاء الأخيرون تنوعًا غير عادي في الأنواع، في حين لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للأتراك والكراغلة.

كثير من القبايل تقدم ظاهرة مماثلة. ومنها، على وجه الخصوص، قبيلة «الأمراوة»، في قلب بلاد القبايل، وهي مستعمرة عسكرية قديمة تحت الحكم التركي، تتكون ليس فقط من القبايل، والعرب، والكراغلة، والزنوج، بل هي أيضًا ملجأ لعدد كبير من اللاجئين والمرتدين من مختلف الأمم. وقبائل أخرى، مثل «بني عامر» في محافظة وهران، وقبيلتي «العمور» و»هل بن علي» في الزاب الشمالي، تتكون من مستعمرات جاءت من أماكن بعيدة جدًا عن بعضها البعض ومن أصول وعادات مختلفة، إلى جانب العنصر البدائي، وهو عائلة المؤسس.[2] ولكن، على الرغم من هذه الاختلافات، فإنهم جميعًا لا يعتبرون القبيلة أقل من مدينتهم، والهيئة التي ينتمون إليها، مع احتفاظ كل فرع بفرديته المتميزة، وهذا التجمع لا يؤدي إلى الاندماج.

هناك أيضًا قبائل عربية تنسبها التقاليد إلى البربر (كما أن هناك قبائل بربرية تنسبها التقاليد إلى العرب)، بينما تتكون الكثير من القبايل الأخرى من عرب وبربر أو قبائل. يتحدث الإدريسي بالفعل عن قبائل بربرية أدى طول الجوار إلى تبنيها استخدام اللغة العربية، «حتى»، كما يقول، «أصبح الشعبان شعبًا واحدًا.»[3] اللغة العربية! دائمًا اللغة هي التي تصنع الشعب! هذا، كما نرى، ليس جديدًا. يقدم بيليسييه هذه الملاحظة فيما يتعلق ببعض القبايل في جبال الساحل، في ضواحي عنابة،

1- جدول وضع المؤسسات الفرنسية في الجزائر، سنة 1844-1845، ص. 457.

2- كاريت ووارنييه، مذكرة حول التقسيم الإقليمي للجزائر، نفس المرجع، سنة 1846-1847، ص. 393-395.

3-المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 204.

وهي «من أصل قبائلي، ولكنها عربية اللغة».[1] ويلاحظ السيد هانوتو، علاوة على ذلك، أن للبربر عادة غريبة «في إنكار أصلهم لإعطاء أنفسهم أنسابًا عربية.» ويقول إن بعض القبايل المعروفة ببربريتها تعتقد أنها عربية؛ وأن فروعًا من أصل عربي قد تبنت تمامًا عادات ولغة القبايل. ويستشهد، من بين أمور أخرى، بمثال دائرة جيجل، التي تستخدم فيها اللغة العربية وحدها، في حين أن «الغالبية العظمى من السكان هي بلا شك بربرية.» ومحافظة وهران تزخر بوقائع مماثلة.[2] وهكذا، كما يوضح السيد وارنييه، فإن عددًا كبيرًا جدًا من القبايل القبايلية تتحدث العربية، ولديها «ادعاء بنسب عربي، يعتبر أكثر نبلًا»، وتعتبر في كثير من الأحيان عربية، على الرغم من احتفاظها بجميع سمات عرقها، ويمكن اعتبارها كذلك حقًا، إذا لم نأخذ في الاعتبار سوى اللغة. وهذا ما يسمى بـ «البربر المستعربين»، في مقابل أولئك الذين يحافظون على استخدام لغتهم الوطنية، والذين يُطلق عليهم «البربر المتبربرين».[3] وقد أطلق ابن خلدون على العرب الخلص اسم «العرب المستعربة»، وأطلق على أولئك الذين تغيرت لغتهم باللكنات البربرية اسم «العرب المستعجمة».[4]

يجب أن نكون قادرين على تقييم الدور الذي لعبته المجموعات السكانية المهاجرة، أو على الأقل الآثار التي تركتها، وهي مشكلة لا تزال صعبة بما فيه الكفاية، ويبقى فيها مجال التكهنات مفتوحًا. ومع ذلك، فإن ما قلناه عن ذلك، حتى مع الإصرار على الحقائق التي تبدو متعارضة، يثبت أنه إذا كان لهؤلاء الغزاة القدامى وهذا الامتزاج البدائي تأثير كبير في الماضي على تكوين الشعوب في هذا البلد، وإذا بقيت منهم أسماء بشكل خاص، فإن السكان في مجملهم لم يتغيروا اليوم بالقدر الذي قد يعتقده المرء. في الواقع، باستثناء الفروق الدقيقة بين السهل الذي تم

1- المرجع المذكور (1856)، المجلد الثاني، ص. 64.

2- مقال في قواعد لغة التماشك، ص. 28؛ باريس، 1860.

3- وارنييه، الجزائر أمام الإمبراطور، ص. 14؛ باريس، 1865.

4- المرجع المذكور، ص. XLV، قارن مع المقدمة، ص.7 LV-LIV.

غزوه والجبل الذي لم يخترقه الغزو، وبين الشرق والغرب، والكثير من الاختلافات الفردية، وهي الآثار الأخيرة للتدخلات والاختلاطات القديمة، فإن القبايلي في التل الجزائري هو نفسه في كل مكان تقريبًا؛ ومن المسموح به الاعتقاد بأن هذه الشعوب المختلفة، المغامرة والقادمة من بعيد، قد انتهى بها الأمر إلى الاستسلام في صراعها مع الظروف الجديدة، لدرجة أنه لم يتبق منها سوى آثار قليلة، وأحيانًا بالكاد يمكن التعرف عليها.

وهكذا، توقفت الصراعات، وعاد كل شيء إلى الهدوء. لم تستمر آثار التزاوج، عندما حدثت، وبسبب عدم استمرارية التجديد، كما يحدث في حالات مماثلة، فإن معظم هذه المجموعات السكانية الأجنبية، عندما لم تنقرض من تلقاء نفسها، قد تم امتصاصها في النهاية في الدم الأصلي، على طريقة الأنهار التي تضيع في البحر. وإذا كان العرب وحدهم قد ازدهروا على هذه الأرض، كما يزدهرون في مصر على سبيل المثال، فذلك لأنهم وجدوا هناك ظروف حياة تتناسب مع نوعهم، وبالتالي وطنًا آخر. ومع ذلك، لا يقدر عددهم الحالي إلا بـ 500,000 في الجزائر، حيث يُقدر وجود حوالي، وفقًا للسيد وارنييه، 2,200,000 فرد من الأعراق المسماة بالبربرية، منهم 1,200,000 مستعربون، و1,000,000 متبربرون.[1]

أما بالنسبة لأولئك الذين يسميهم العرب «التوارق» (وهو مصطلح يعني، حسب قولهم هم أنفسهم، «المهملون»)، هؤلاء سادة الهضبة الوسطى للصحراء، الذين تمتد مناطقهم من التبو، وفزان، والصحاري شرق غدامس، حتى شمال توات، ومن بلاد الواحات هذه، عبر مساحات شاسعة من العزلة، حتى تمبكتو وضفتي نهر النيجر، أما بالنسبة للتوارق، فنقول إنه يجب الاعتقاد بأنهم كانوا بمنأى أكبر بكثير عن الغزوات، وأن نوعهم لا يزال أقل تغيرًا من سكان المناطق الشمالية. لغتهم هي الأنقى بين جميع اللهجات البربرية. ومع ذلك، نلاحظ بينهم زيجات أجنبية. يقولون: «أصلنا الأكثر شيوعًا هو أصل الأدارسة في فاس. مجموعنا

1- المرجع المذكور، ص. 41. قارن مع هانوتو، المرجع المذكور، ص. 212 وما بعدها.

مختلط ومتشابك مثل نسيج خيمة يدخل فيه وبر الجمل مع صوف الخروف. يجب أن يكون المرء ماهرًا لإقامة تمييز بين الوبر والصوف. ومع ذلك، نعلم أن كل قبيلة من قبائلنا العديدة قد خرجت من بلد مختلف.» ووفقًا للسيد دوفرييه، الذي يروي هذه الرواية المحلية، فإن «الادعاء بنسب إدريسي يعطي للعائلات الرئيسية للتوارق أصلًا عربيًا... يكاد يكون مبررًا» من خلال التحالفات الزوجية بين حكام فاس وعائلات زعماء التوارق الذين لم يكن من الممكن إخضاعهم بالسلاح. «مهما كان الأمر»، يضيف المسافر الشاب والعالم لاحقًا، «فإن التوارق، على الرغم من اختلاط دمائهم... بدماء الأدارسة العرب، ظلوا بربرًا، وكجزء من الشعب البربري، فإن أصلهم بعيد كل البعد عن أن يكون غير مؤكد.»[1]

من المفهوم أنه مهما كان عدد هذه الزيجات، فإن الأمر لا يتعلق إلا بوقائع فردية، وليس بتزاوج على نطاق واسع.

لقد رأينا للتو أن الكثير من القبايل، بدافع من شعور غريب بالفخر، ينسبون لأنفسهم هذا الأصل العربي النبيل المزعوم، أصل المنتصر. فهل يمكننا أن نصدق أن التوارق، بدورهم، يدعون أنهم ينحدرون من الأتراك؟ دوماس هو من كشف عن هذا الرأي الذي هو بالتأكيد غير شائع، ملاحظًا أنه «تم اعتماده بلا شك بسبب كبريائهم، لأنهم يتظاهرون بازدراء العرب، الذين يعاملونهم كشعب مهزوم.»[2] ولكن إذا أردنا ألا نندهش كثيرًا من هذه الأوهام، يمكننا أن نتذكر أنه بالنسبة لبعض نبلاء إسبانيا، يجب أن يكون المرء ابنًا لقوطي؛ وهكذا كم بيننا نحن، وكأنهم فخورون بالرومان اللامعين، لا يريدون أن يكونوا إلا نصف غاليين! من ناحية أخرى، قيل إن تقاليد هذه الشعوب تجعلهم ينحدرون من مرتفعات الأطلس المشجرة.[3] كل هذا يثبت أنهم بعيدون كل البعد عن التوافق فيما بينهم، ولا حتى مع مختلف المؤلفين، حول

1-التوارق في الشمال، ص. 317؛ باريس، 1846.

2- المرجع المذكور، ص. 324.

3- بوديشون، دراسات حول الجزائر وأفريقيا، ص. 71؛ الجزائر، 1847.

مسألة أصلهم التي نحاول توضيحها، والتي قد تكون لا تزال غير قابلة للحل.

على أي حال، فإن هذه الدراسة الاسترجاعية قد أظهرت لنا مرة أخرى صعوبات التأقلم، وقوة المقاومة التي تبديها الأنواع العرقية القديمة في مواجهة الاختلاط على مدى قرون طويلة، مع الحفاظ مع ذلك على كامل فرديتها الفسيولوجية.

ولنعد الآن إلى الجيتول والليبيين، سنرى أن الشعبين الرئيسيين الذين يحق لنا اعتبارهما من نسلهم، والذين يحتلون، مع بعض الاختلافات، نفس المناطق، لا يندمجان فقط في نوع واحد يسمى «بربري»، بل إن السمات التي تميزهما هي من طبيعة تجعل من الممكن التمييز بينهما من وجهة النظر العرقية.

ثالثاً. القبايل والتوارق.

إذا صدقنا معظم المؤلفين المعاصرين، فلا شيء يمكن أن يجعلنا نعتقد أن القبايل والتوارق ليسوا شعوبًا تنتمي إلى نفس العرق. فنقاط التشابه بينهم تستبعد كل الشكوك، أما بالنسبة للاختلافات، فإن طبيعة الأماكن والعادات أو التزاوج تكفي لشرح كل شيء. ومع ذلك، يوجد لدى القبايل الجزائريين، وبلا شك لدى التوارق أيضًا، عدد كبير من العائلات التي يمكن اعتبارها من دم نقي أو قليل الاختلاط؛ وهذه هي التي ينبغي دراستها بشكل مقارن ومطول، قبل حسم هذه المسألة. بالنسبة لنا، دون أن نؤكد أن هؤلاء وأولئك ليسوا من أصل واحد، نقول إن هذه ليست حقيقة مثبتة علميًا، وأنه إذا كانوا ينحدرون من أصل واحد، وهو ما نعتقده، فإنهم مع ذلك يشكلون عرقين متميزين.

منذ أربعين عامًا من احتلال أسلحتنا للجزائر، لا نزال لا نعرف بدقة السكان الأصليين الذين يسكنونها، ومن باب أولى سكان الصحراء الكبرى. عندما نمتلك جميع عناصر هذه الدراسة المقارنة، من الممكن

أن تظهر اختلافات أكثر وضوحًا من تلقاء نفسها. في هذه الأثناء، سنقدم بعض المعلومات عن التوارق والقبايل، والتي لا يمكن أن تكون إلا نتيجة لدراسات غير مكتملة وجزئية.

التوارق الذين نتحدث عنهم هم على وجه الخصوص أولئك المنتمون للاتحادات الشمالية: «الأزجر» أو «كل أزجر» (أهل أزجر)، و«الأهقار» أو «كل أهقار»، الذين يسمون أنفسهم «إيموهاغ» للأولى، و«إيموشاغ» للثانية. أما في الجنوب فهناك «الأولميدن»، الذين يقولون أيضًا إنهم «إيموشاغ»، و«كل آير»، الذين يقولون إنهم «إيماجيرهن».

بشكل عام، يُعترف بأن للتوارق قامة طويلة جدًا، وأشكالًا واسعة ومنتظمة، ومشية بطيئة ورصينة ومتعالية، والكثير من النبل في المظهر: جبهة عريضة ومرتفعة، وعينان متباعدتان، جميلتان، وأحيانًا غائرتان في محجريهما، وقزحية سوداء وأحيانًا زرقاء، وأنف صغير، وفم متوسط، ولحية سوداء وخفيفة، وشعر أسود وأملس. لوحظ أن الزعماء الثلاثة من التوارق الذين أتوا إلى باريس عام 1863، كانت جماجمهم شبه مستديرة.[1] أيديهم صغيرة ومتقنة الصنع. يقول السيد دوفرييه إن أقدامهم ستكون جميلة أيضًا، «لولا أن إصبع القدم الكبير، نتيجة أو سببًا للحذاء المستخدم، يبرز بشكل مزعج للعين.»[2] بشرتهم بيضاء بطبيعتها، ومسمرة إلى حد ما. نساؤهم جميلات.

أما القبايل، فلهم قامة متوسطة، وأشكال ممتلئة، عضلية وجافة، ومظهر بسيط ومهمل؛ جبهة ضيقة وغير مكشوفة، وحواجب بارزة؛ ونوع جماجمهم بشكل عام دوليكوسيفالي (طويل الرأس) بشكل طفيف. قيل إن عظام جماجمهم سميكة، وأن العظم الجبهي عادة ما يكون خشنًا على سطحه.[3] لديهم عيون كبيرة، بنية، وأحيانًا حمراء أو رمادية، وأنف

1- بونافون، مذكرة حول قبائل التوارق، إلخ، في نشرات جمعية الأنثروبولوجيا، 1863، المجلد الرابع، ص. 116.

2- المرجع المذكور، ص. 382.

3- بوديشون، اعتبارات حول الجزائر، ص. 78-79؛ باريس، 1855.

متوسط، أفطس، منخفض عند الجذر، مستدير عند الطرف؛ وعظام وجنتين بارزتين، وأذنان عريضتان، وشفاه غليظة، ولحية كثيفة من الأمام، خفيفة من الخلف؛ وشعر أسود، كستنائي أو أحمر؛ ومحيط الوجه أكثر استدارة من كونه ممدودًا؛ والساق متناسقة، والأقدام متوسطة الحجم، ولكن غالبًا ما تكون غير متناسقة الشكل؛ والبشرة بنية إلى حد ما، وأحيانًا ذات لون فاتح نسبيًا. نساؤهم بشكل عام لا يمكنهن الادعاء بالجمال.

التارقي (مفرد توارق) جاد في طباعه كما هو في مظهره، بينما يتميز القبايلي بحركته الجسدية والعقلية. الأول فخور إلى أقصى حد، وليس أقل منه إيمانًا بالخرافات، فهو مغطى بالتمائم. لا يُقبل يدك أبدًا «مثل المسلمين الآخرين»، كما يقول الرحالة ليون، «ولا حتى يد السلطان.»[1] هو في الأساس بدوي وراعٍ لقطيعه الهزيل، بارع في السفر، لا يكل على جمله السريع (المهاري)؛ بينما الثاني، وهو مزارع ممتاز، مرتبط بالأرض بقوة وبشكل غريزي، ويبني لنفسه مساكن ثابتة من الحجر. لا يعرف التوارق

من جهتنا، قمنا عدة مرات بجمع عظام جمجمة سميكة وثقيلة جداً من المقابر القبايلية (بالإضافة إلى عظام عضد مثقوبة في الحفرة الزجية). وتساءلنا عما إذا كان هذا ليس سمة عرقية. من المعروف أن العديد من الجماجم القديمة جداً تتميز بهذه الخاصية، وكذلك جمجمة الشعوب غير المثقفة والقوية البنية بشكل عام. كان سيريس قد لاحظ ملاحظة من هذا النوع على جماجم قديمة من النمط الغالي وُجدت بسماكة غير عادية، بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لجماجم أخرى من النمط الكيمري (حول النصب التذكاري والعظام السلتية المكتشفة في نودون، إلخ، في «التقارير الأسبوعية لأكاديمية العلوم»، سنة 1843، المجلد 21، ص. 646). هذا يذكرنا بهيرودوت الذي أشار إلى الفرق بين جماجم الفرس وجماجم المصريين، حيث كانت الأولى لينة والأخرى صلبة (الكتاب الثالث، الفصل 12). لكن يجب ألا ننسى ملاحظة لاري هذه، وهي أن عظام رأس العرب «أرق وفي نفس الوقت أكثر كثافة من شعوب أخرى». ويقول إنه إذا أمكن قياس الوزن النوعي لعظام العرب الحقيقيين، «فإن هذا الوزن سيُعترف به بالتأكيد على أنه أكبر، مع تساوي جميع العوامل الأخرى، من أفراد الأمم الأخرى» (المجلة الطبية للحملات والرحلات، ص. 261، 263؛ باريس، 1820). هناك مجال كامل للبحث يجب القيام به هنا، وستستفيد منه العلوم.

1- رحلة في داخل شمال أفريقيا، في «مجموعة الرحلات الحديثة المترجمة من الإنجليزية»، المجلد التاسع عشر، ص. 382؛ باريس، 1822.

أي صناعة، وليس لديهم مهن أخرى سوى التجارة، وقيادة القوافل، وخاصة نهبها، إذا صدقنا الشهادات التي جمعها دوماس، والتي تواجهها شهادات معاكسة.[1] ومن خلالهم، وفقًا للسيد كاريت، يتم تزويد شمال أفريقيا بالعبيد.[2] القبايل هم أيضًا بائعون متجولون وتجار بالطبع وبالضرورة، لكنهم على وجه الخصوص حرفيون وصناعيون؛ لديهم ميل فطري للعمل في المعادن كما للعمل في الأرض. يطعمون أشجار الفاكهة، ويصنعون أقمشتهم، وأدواتهم الزراعية، وأسلحتهم، وذخيرتهم الحربية؛ لديهم طواحين، ومعاصر، وحدادة، ومصانع.

يُعتبر التوارق ماكرين، صبورين، ولكن لا قانون لهم سوى مصلحتهم. أما القبايلي فهو مثال للشرف والولاء، ومضيف آمن، وحليف ذو وفاء نادر. عند أولئك، يظل الرجل أحادي الزوجة، ونادرًا ما يتزوج قبل الثلاثين، والمرأة قبل العشرين، وهي من تقرر أمر زواجها. أما القبايل فيتزوجون أحيانًا في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من فتيات في العاشرة من العمر، يبيعهن آباؤهن؛ وتعدد الزوجات ليس مستبعدًا من عاداتهم. وبالتالي، فإن النساء يحظين بتقدير أكبر بكثير لدى التوارق منه لدى القبايل. المرأة التارقية غالبًا ما تعرف القراءة والكتابة، وتبدو أكثر تعليمًا من الرجل، الذي هي على الأقل مساوية له.[3] ونرى أيضًا أن الثقافة العقلية، والمفاهيم العلمية، أقل إهمالًا بشكل عام لدى التوارق منها لدى القبايل.

من الغريب أنه بينما يحتقر العرب القبايل، ولا يتنازلون لتعلم لغتهم، ويعاملونهم كشعب مهزوم، فإن التوارق، على العكس من ذلك،

1-المرجع المذكور، ص. 327-330، قارن مع ص. 5. هانوتو، المرجع المذكور، المقدمة، ص. XXII-XXIII. دوفيرييه، المرجع المذكور، ص. 459.

2- أبحاث حول جغرافية وتجارة الجزائر الجنوبية، المجلد الأول، ص. 162، في «الاستكشاف العلمي للجزائر»؛ باريس، 1844.

3-دوفيرييه، المرجع المذكور، ص. 369، 388، 420 وما بعدها. هانوتو، المرجع المذكور، المقدمة، ص. XXIII.

يحتقرون العرب، الذين يقولون إنهم سادتهم.[1] علاوة على ذلك، فإن شكل الحكومة، وهو نوع من الملكية الإقطاعية والوراثية، التي تنتقل فيها السلطة عادة عن طريق النساء، إلى الابن الأكبر للأخت الكبرى للزعيم،[2] هو أرستقراطي جدًا لدى التوارق، بينما التنظيم الاجتماعي متساوٍ وجمهوري تمامًا لدى القبايل. هناك، تنقسم القبايل إلى قبائل نبيلة أو «إيهاغارن» وقبائل تابعة، تُعرف باسم «إيمغاد» (جمع «أمغيد»)؛[3] هنا، لا وجود للعبودية. ثم، بغض النظر عن مقارنة الملابس، والأسلحة، وطريقة القتال، لدى هؤلاء وأولئك؛ وبغض النظر عن سمات أخرى في العادات، مثل ممارسة التلقيح، غير المعروفة أو قليلة الاستخدام في الصحراء، والمنتشرة جدًا منذ زمن سحيق في كل بلاد القبايل؛[4] إذا أضفنا أن التارقي يربي شاربًا كبيرًا على الطريقة التركية، ويترك خصلة من الشعر تنمو من الجبهة إلى مؤخرة العنق، وأنه يرتدي حلقة من الحجر في ذراعه، وخنجرًا على ساعده، وحلقة كبيرة في أذنه في شبابه؛ وأنه يدخن، ويستنشق، ويمضغ التبغ كثيرًا،[5] وهي عادات لا نراها سائدة بنفس الشكل لدى القبايل، نكون قد لاحظنا وجود اختلافات كبيرة حقًا بين المجموعتين العرقيتين في كل هذه النواحي.

أخيرًا، من المعروف أن التوارق هم أيضًا «الملثمون»، وهو الاسم الذي أطلقه عليهم العرب. وفقًا لابن خلدون، ينحدرون من قبائل «جدالة، ولمتونة، ومسوفة، وعلالة، وتارغة (ومنها توارق)، وزغاوة، ولمطة.»

1- دوما، المرجع المذكور، ص. 328، قارن مع ص. 324. قارن مع هانوتو، المرجع المذكور، المقدمة، ص. XXIII.

2-دوفيرييه، المرجع المذكور، ص. 356-357. قارن مع بارت، رحلات واكتشافات في شمال ووسط أفريقيا، ترجمة فرنسية بقلم ب. إيتير، المجلد الأول، ص. 205؛ باريس، 1860-1861. مقالنا عن التزاوج العرقي، في «مذكرات جمعية الأنثروبولوجيا»، المجلد الثاني، ص. 204 وما بعدها.

3-هانوتو، المرجع المذكور، المقدمة، ص. XXIII-XXIV. قارن مع دوفيرييه، المرجع المذكور، ص. 250 وما بعدها. بارت، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 284.

4-دوفيرييه، المرجع المذكور، ص. 454-456. قارن مع بونافون، المرجع المذكور، الموضع المذكور أعلاه، المجلد الرابع، ص. 116. غيون، رحلة من الجزائر إلى الزاب، ص. 143؛ الجزائر، 1853.

5- دوفيرييه، المرجع المذكور، ص. 392-393، 432، 412-413.

ويضيف: «هذه الشعوب هي إخوة صنهاجة.»[1] وهكذا، في زمن ليون الأفريقي، الذي تبعه مارمول، والذي يروي ما رآه، كان سكان صحراء ليبيا أو الصحراء، «التي سماها اللاتين نوميديا»، هم الشعوب الخمسة: «زناغة، وغنغة، وترغة، ولمطة، وبردوا.» يقول ليون إنهم لا يملكون مطية سوى الجمال؛ وأنهم «يرتدون على رؤوسهم قطعة قماش سوداء يغطون بها جزءًا من وجوههم، مخفين جميع أجزائه، باستثناء العينين، ويسيرون هكذا يوميًا»؛ ثم، أن «نساءهم ممتلئات جدًا، ولكن لسن سمراوات على الإطلاق، ولديهن الأجزاء الخلفية ممتلئة جدًا ورطبة،» وكذلك الأثداء.[2] هؤلاء هم توارقنا. ولكن، هل هذه العادة، عادة اللثام، التي لا يخلعونها أبدًا، لا عند الأكل ولا عند النوم، تميز التوارق حصريًا؟ يقول السيد دوفرييه إنه إذا كان زعماء العرب وغيرهم من المناطق المجاورة، وأهل عين صالح، وغدامس، وغات، وعرب توات البدو، والتبو، يغطون وجوههم أيضًا بالتقليد، فإن التوارق هم الوحيدون حقًا الذين يعتبر استخدام اللثام لديهم عامًا وجزءًا من العادات.

ومع ذلك، لم تكن هذه العادة موجودة فقط، قبل الإسلام بقرون عديدة، لدى أسلاف هذه الشعوب نفسها (صنهاجة، حسب ابن خلدون) وفي هذه المناطق نفسها؛ بل وأيضًا في شبه الجزيرة العربية. يتحدث كوسان دي برسفال عن عرب قدماء كانوا يخفون وجوههم تحت «اللثام»، وهو «منديل يغطي به البدو رؤوسهم، ويسدلون طرفه على الجزء السفلي من وجوههم، بحيث لا يظهر منهم سوى أعينهم.» ويروي أن محمدًا وهو ذاهب إلى مكة، وبعد أن أوقفته قبيلة ككوية، أُرسل إليه عروة، الذي «وجد النبي محاطًا بكبار أصحابه، وكان معظمهم يخفون

1- المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص. 64-65 والملاحظة، قارن مع المجلد الأول، ص. 219، الملاحظة 2.

2- ليون، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 48-52،49-53، قارن مع ص. 4، 9؛ المجلد الثاني، ص. 135 وما بعدها. مارمول، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 73-74، المجلد الثالث، ص. 43 وما بعدها.

وجوههم تحت اللثام.»[1]

يقال إن كل هذه الشعوب المسماة بالبربرية متحدة بروابط لغة مشتركة، وهي لهجات اللغة البربرية؛ هذه هي الكلمة الفصل، وإذا لم نكن مخطئين، فهي الحجة القاطعة. لقد رأينا (أعلاه، ص. 27) ما يقوله ليون ومارمول عن لغة السكان الأصليين. ومن ناحية أخرى، كان فنتور، الذي ألف كتابه عام 1788، لا يزال يقول إن اللغة البربرية يتحدث بها الناس من جبال سوس، بالقرب من المحيط، حتى مملكة تونس، وأن «هذه اللغة، مع بعض الاختلافات الطفيفة، هي نفسها التي يتحدث بها الناس في جزيرة جربة، والمنستير، ومعظم القرى المنتشرة في الصحراء، ومن بينها قرى قبيلة بني مزاب.»[2] ومع ذلك، فإن لهجات اللغة المشتركة بعيدة كل البعد عن التشابه. وعلاوة على ذلك، من المعروف جيدًا أن وحدة اللغة نفسها لا تثبت على الإطلاق وحدة الأصل العرقي. وهكذا رأينا بربرًا يتبنون العربية، وعربًا يتبنون البربرية، لدرجة أنهم أنكروا أصلهم. ثم، ألم تنسَ جميع آثار الشعوب التي حطت في أوقات مختلفة على المغرب لغتها الأصلية، لتتحدث اليوم إحدى هاتين اللغتين؟

اللهجات الرئيسية المسماة بالبربرية هي: القبايلية، والتماهق والتماشق (طارقية الشمال والجنوب)، والشاوية، والزناتية، والمزابية، والشلوح أو الشلحة، والتمازيغت أو التمازيغ (في المغرب)، وكلها متأثرة إلى حد ما بالمصطلحات العربية. وهذا هو حال القبايلية الجزائرية على وجه الخصوص، التي تدهورت تقريبًا إلى مستوى اللهجة العامية.[3] ومن خصائص اللغة العربية أن تفرض نفسها عند احتكاكها باللغات الأخرى، وتجردها من مكانتها. على العكس من ذلك، وكما يلاحظ السيد هانوتو،

1- المرجع المذكور، المجلد الثالث، ص. 179، المجلد الثاني، ص. 554.

2- قواعد ومعجم اللغة البربرية، مراجعة أميدي جوبير، المقدمة، ص. III؛ باريس، 1844؛ نفس المرجع، مذكرة حول اللغة البربرية، في «رحلة هورنمان في شمال أفريقيا»، ترجمة فرنسية مع تعليقات لانجليس، الجزء الثاني، ص. 415؛ باريس، السنة 10 (1802). قارن مع مارسدن، ملاحظات حول لغة سيوه، نفس المرجع، ص. 405 وما بعدها.

3- موري، الأرض والإنسان، ص. 475، 480؛ باريس، 1857.

فإن التماشق هي اللهجة الوحيدة من بين جميع اللهجات البربرية «التي بقيت نقية تقريبًا من الاختلاط بالعربية.»[1] هذه الملاحظة مهمة جدًا.

لا يمكننا الدخول في مناقشة حجج الهوية العائلية التي تقدمها هذه اللهجات فيما بينها. هذه مهمة محفوظة للغويين، وتبدو لنا صعبة جدًا؛ لأنه حيث يرى البعض تشابهات، لا يرى الآخرون سوى اختلافات. وعلى سبيل المثال، يقول جاكسون، الذي أقام ستة عشر عامًا في المغرب، ورأى الشلوح والبربر عن قرب، بعد أن تحدث مع مئات منهم، إن لغتيهما (الشلحية والبربرية) مختلفتان تمامًا، لدرجة أنه لا توجد كلمة واحدة في المفردات الأولى تشبه الكلمة المقابلة لها في الثانية.[2] ويقول القنصل غرابيرغ دي هيمسو الشيء نفسه، وهو أن هذين الشعبين لا يستطيعان فهم بعضهما البعض بدون مترجم،.[3] ومع ذلك، فإن مؤلفين آخرين ليسوا من هذا الرأي. ولكن إذا كان هناك خلاف بعيد عن الإجماع، فذلك لأنه لا تزال هناك الكثير من الدراسات التي يجب إجراؤها على هذه اللغات المقارنة.

أخيرًا، من المهم أن نتذكر أن حروف الكتابة البربرية (تيفيناغ) قد حُفظت في لغة التوارق، وأنها تشبه كثيرًا حروف النقوش الليبية؛[4] فمن المعروف أن هذه الكتابة، التي عُثر عليها لحسن الحظ في الصحراء، قد اختفت من التل، لدرجة أنه لم يبق منها شيء. بعد أن تضررت من سيطرة الرومان والوندال، أُزيلت ودُمرت تمامًا بسبب التعصب الوحشي للفاتحين العرب، مما أدى إلى طمس كل أثر للمعارف القديمة لدى القبايل. «فلا ينبغي أن نتعجب»، كما قال ليون بالفعل، «إذا ضاعت حروف أفريقيا، ولا لأي سبب، منذ تسعمائة عام» يستخدم الأفارقة

1-المرجع المذكور، المقدمة، ص. XVII، قارن مع ص. III.

2- سرد لإمبراطورية المغرب، ص. 141؛ لندن، 1814.

3-المرجع المذكور، ص. 77.

4- هانوتو، المرجع المذكور، المقدمة، ص. XXVIII. دوفيرييه، المرجع المذكور، ص. 388 وما بعدها.

الحروف العربية.[1] الترجمات البربرية للقرآن، حتى تلك التي كتبت بالحروف العربية، دُمرت باعتبارها كفرًا. وهكذا، فإن كل ما يُكتب لدى القبايل هو باللغة العربية، وهي الوحيدة المستخدمة في «الزوايا» (مدارس التعليم)، والوحيدة التي يُسمح بالصلاة بها.

نظام الترقيم أيضًا لا يتم تمثيله بنفس الطريقة لدى التوارق والقبايل في التل، حيث تبنى هؤلاء الأخيرون بالكامل تقريبًا التسميات العربية للوحدات التسع، بينما لا يستعير الأولون منهم سوى الأعداد من ستة إلى تسعة. والنظام العددي هو خماسي بحت لدى «الرواغة»، و»السوافة» (من وادي سوف)، و»الشعانبة»، وكذلك لدى بني مزاب؛ مما يدفع السيد رينود إلى الاعتقاد بأن هذا كان النظام العددي البدائي للسكان الأصليين.[2]

لقد قدمنا بعض الأسباب التي تميل بشكل ملحوظ، في رأينا، إلى إقامة تمييز عرقي بين القبايل والتوارق. لنعد الآن إلى السكان ذوي الشعر الأشقر والبشرة البيضاء الذين تم الإشارة إليهم منذ القدم في نفس الأماكن، والذين لم يُعطوا حقهم الكافي.

رابعاً. الأعراق الشقراء القديمة.

لقد أظهر لنا نقش الكرنك العظيم أن جزءًا على الأقل من الشعوب الليبية كان من العرق الأشقر. هذه الشهادة لا تقبل الجدل، وتعود إلى أبعد ما يمكن في الماضي. لم يُذكر في رواية إيزيدور الإشبيلي أن «الجيت» أو الجيتول كانوا شقرًا، ولكن في سياق هذه الرواية، لا شك في ذلك. أما بالنسبة لرحلة سكيلاكس، فقد رأينا أنه يطلق اسم «الليبيين»

1- المرجع المذكور، الكتاب الأول، ص. 75. قارن مع فنتور، قواعد، إلخ، المرجع المذكور، المقدمة، ص. XI.

2- مذكرات حول أنظمة الترقيم، إلخ، ص. 45 وما بعدها؛ كتيب، باريس، 1861. قارن مع برونر-باي، حول الأنظمة البدائية، إلخ، في «نشرات جمعية الأنثروبولوجيا»، المجلد الثاني، ص. 488 وما بعدها.

على الرجال الجميلين والشقر الذين سكنوا السواحل المجاورة لسرت الصغرى. من هم هؤلاء الليبيون؟ بالقرب من هناك كانت جزيرة مينينكس، التي تسمى اليوم جربة، حيث كانت تنمو شجرة اللوتس، والتي يعتبرها سترابون، بعد إراتوستينس، أرض آكلي اللوتس، المذكورة في ملحمة هوميروس، والتي كانت ثمارها العجيبة تنسي رفاق أوليسيس العودة إلى وطنهم.[1] في القرن الثاني عشر، قال الإدريسي عن هذه الجزيرة إنها «مأهولة بالبربر، ذوي لون أسمر عمومًا، يميلون إلى الشر، ولا يتحدثون أي لغة أخرى غير البربرية»؛ ثم، في عصره، يخبرنا مارمول أن هؤلاء البربر كانوا يتحدثون «عربية محرفة.»[2] ولكن ما يلفت الانتباه هو أن هذه اللغة البربرية، في أيامنا هذه، هي «خصيصًا لهجة «الشلحة»، كما تُسمى في جربة، وفقًا لتقرير السيد ديلابورت والسيد فلاشناكر، وكذلك في جبال المغرب»؛[3] ثم أن السكان الذين يحملون هذا الاسم في المغرب، والذين يتحدثون هذه اللهجة، هم جزئيًا شقر، كما سنرى. من المعروف علاوة على ذلك أن السكان القدامى لجزر الكناري، وهم «الغوانش» الشجعان، كانوا ينتمون إلى عرقين أو نوعين متميزين، من حيث القامة، وشكل الرأس، والعادات، وخاصة لون الشعر، حيث كان بعضهم أسمر والبعض الآخر أحمر الشعر أو أشقر.

من المعروف أن هؤلاء الغوانش القدامى، الذين يعيش جزء منهم في سكان الكناري الحاليين، والذين لا يزال منهم، وفقًا لغولبيري، «عدد قليل من العائلات الفقيرة وشبه المجهولة» في البلاد،[4] كانوا يتحدثون

1-سترابون، الكتاب السابع عشر، الفصل الثالث، الفقرة 17؛ الطبعة الفرنسية، المجلد الخامس، ص. 478. هوميروس، الأوديسة، الكتاب التاسع، الأبيات 91 وما بعدها. قارن مع هيرودوت، الكتاب الرابع، الفصل 177. بليني، الكتاب الخامس، الفصل السابع.

2- الإدريسي، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 281. مارمول، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص. 540.

3- دافيزاك، جزر أفريقيا، الجزء الأول، في «الكون»، ص. 35؛ باريس، 1848. قارن مع مالت-برون، موجز الجغرافيا الكونية، المجلد الخامس، ص. 541؛ باريس، 1840-1842.

4- رحلة (.1785-87..)، في مجموعة والكينير، التاريخ العام للرحلات، المجلد الخامس، ص.

لهجات بربرية، وأنهم ليسوا منفصلين عرقيًا عن شعوب القارة، سكان الأطلس (2).[1] بالفعل، واحدة من أقدم الروايات المعروفة عن هذه الجزر، وهي رواية «المغرورين» الذين انطلقوا من لشبونة قبل القرن الثاني عشر، تشير إلى أنه في إحدى هذه الجزر، التي يجب أن تكون لانزاروت، رأى الملاحون المغامرون «رجالًا طوال القامة، ذوي لون أحمر وأسمر، بشعر طويل (حرفيًا، غير مجعد)؛ ونساء كنّ ذوات جمال نادر.»[2] من ناحية أخرى، في منتصف القرن الرابع عشر، أثناء الحملة التي أُرسلت إلى تلك المناطق تحت قيادة ألفونسو الرابع ملك البرتغال، يقول الراوي عن السكان الأصليين: «وكان لديهم شعر طويل وأشقر يصل تقريبًا إلى السرة، وبه يتغطون». المؤرخون الذين جاءوا بعد ذلك والمؤرخون المعاصرون للغزو، والذين حللهم بيرثيلو، يقدمون ملاحظات مماثلة.[3]

من هناك ننتقل إلى الصحراء. إليكم الكلمات التي يروي بها بروكوبيوس شهادة الزعيم الأصلي أورثاياس الذي تحدثنا عنه بالفعل: «لقد أكد لي هذا الأمير عدة مرات أنه وراء الأراضي التي تخصه (غرب الأوراس)، كانت هناك صحاري شاسعة، في نهايتها شعوب لم تكن سوداء مثل المور،» (ὥσπερ οἱ Μαυρούσιοι) «بل كانت بشرتهم بيضاء وشعرهم أشقر» (ἀλλὰ λευκοὶ).[4] هل كانوا هؤلاء من نسل الجيتول؟ هل كانوا ذرية «الإثيوبيين البيض» عند بليني وبطليموس،

520؛ باريس، 1826.

1- بيرثيلوت، مذكرة حول الغوانش، في «مذكرات الجمعية الإثنولوجية»، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص. 97 وما بعدها، و129 وما بعدها؛ باريس، 1845-1847.

2- الإدريسي، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص. 26-27.

3- المرجع المذكور، الموضع المذكور أعلاه، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص. 121-123، المجلد الأول، الجزء الأول، ص. 131-132، 172 ومواضع أخرى. قارن مع دافيزاك، المرجع المذكور، الجزء الثاني، الموضع المذكور أعلاه، ص. 138.

4-المرجع المذكور، الكتاب الثاني، الفصل الثالث عشر؛ الترجمة الفرنسية المذكورة، ص. 320.

كما يبدو أن السيد بروكا يعتقد؟[1] ولكن، بينما يضعهم بليني بعيدًا، وراء الجيتول، يشير بطليموس إلى موقعهم أبعد من ذلك بكثير، عند سفح جبل «ريساديوس»، بالقرب من المحيط، كما قلنا سابقا. لذلك، اعتبر هؤلاء «الإثيوبيين البيض» الأخيرون أنهم «من الواضح» أسلاف «الفولاه».[2] ألا يمكن أن يكون «الإثيوبيين البيض» و«الجيتول السود» في أماكن مختلفة مجرد مجموعات سكانية مختلطة إلى حد ما، كما نرى ذلك لا يزال لدى بعض التوارق؟ مهما كان الأمر، فإن هؤلاء البدو البيض والشقر الذين يتحدث عنهم بروكوبيوس، والذين سبقوا الوندال وربما كانوا من السكان القدامى جدًا، كانوا يجوبون صحاري مثل توارقنا، الذين يشبهونهم على الأقل في لون البشرة؛ ويمكن للمرء أن يعتقد أن هؤلاء الأخيرين من نسلهم. كان ديسمولين قد طرح هذا الشك؛ وبالنسبة له، لم يكن التوارق بيضًا فحسب، بل كان لديهم شعر أشقر.[3] ولكن صحيح أنه لم يعد يُشار إلى هذا اللون من الشعر لدى التوارق الحاليين، بينما هو شائع جدًا لدى القبايل.

خامساً. التوارق البيض والقبايل الشقر.

هورنمان، في نهاية القرن الماضي، يصف التوارق بأنهم «الأمة الأكثر إثارة للاهتمام في أفريقيا.» يلاحظ أنهم، على الرغم من انقسامهم إلى عدة قبائل، يتحدثون نفس اللغة، «يبدو أن لونهم وطريقة عيشهم يثبتان أن أصلهم مختلف تمامًا.» يصف أولئك المنتمين لأمة «كلوفي» (كل أوي)، وفقًا له، من قبيلة «هقارا»، ويقول إن «القبايل الغربية بيضاء، بقدر ما يسمح به المناخ وطريقة عيشهم.» ويضيف: «الكلوفيون الذين وصلوا إلى منطقة أسبن، غزا أغاديس، واختلطوا مع أمم أخرى.

1- في «نشرات جمعية الأنثروبولوجيا»، 1860، المجلد الأول، ص. 162-164.

2- رينيل، ملاحظات حول جغرافية أفريقيا، في «رحلة مونغو بارك في داخل أفريقيا»، الترجمة الفرنسية، المجلد الثاني، ص. XXXIV؛ باريس، السنة الثامنة (1800).

3- التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية، ص. 172؛ باريس، 1826.

هم من ألوان مختلفة،» بعضهم أسود، دون أن يشبهوا الزنوج، والبعض الآخر مصفر، مثل العرب. «ليس كل التوارق مسلمين. في جوار السودان وتمبكتو، يسكن «التاغاما»، وهم بيض ووثنيون.» وفي مكان آخر يقول: «العديد من التوارق، جيران تمبكتو، بيض. قبيلة أخرى منهم، مستقرة بالقرب من بورنو، هي من نفس اللون، وكذلك عرب الساحل الشمالي لأفريقيا.»[1]

بالنسبة للإنجليزي ليون، فإن التوارق هم أجمل عرق من الرجال رآه على الإطلاق. يقول: «هم بيض، لأنهم لا يدينون ببشرتهم شديدة السمرة إلا لحرارة المناخ الذي يسكنونه، وأجزاء أجسامهم التي تكون مغطاة باستمرار هي بيضاء مثل بشرة الكثير من الأوروبيين.»[2] ووفقًا لدوماس، فإن التوارق «طوال القامة، أقوياء، نحفاء، ولونهم أبيض، حتى أولئك الذين يخيمون تحت تمبكتو.» ويضيف أن نساءهم «جميلات جدًا وبيضاوات جدًا، بيضاوات مثل المسيحيات،» وأن بعضهن لديهن عيون زرقاء، وهو ما يثير الإعجاب كثيرً.[3] يكتفي السيد بونافون بالقول إنهم «من دم أبيض،» وأنهم «يحافظون بعناية على عدم التزاوج مع العرق الزنجي، الذي يحتقرونه بشدة.»[4]

من المؤكد مع ذلك، وفقًا لما هو معروف بيقين، أنه إذا كان توارق الشمال بيضًا نسبيًا، فإن بشرتهم أغمق إلى حد ما في الجنوب، نتيجة للتزاوج المتكرر مع النساء الزنجيات. يقول السيد دوفرييه: «بشرتهم بيضاء في الطفولة؛ ولكن الشمس سرعان ما تمنحها اللون البرونزي الخاص بسكان المناطق المدارية. لدى العبيد، غالبًا ما يكون لون البشرة أغمق بسبب اختلاط الدم الأسود بالدم الأبيض. بعضهم لديه عيون

1-المرجع المذكور، الجزء الأول، ص.، 158-159، 154، 170-171

2-المرجع المذكور، الموضع المذكور أعلاه، ص. 112-113.

3- المرجع المذكور، ص. 324، 326-327. قارن معه، القبايل الكبرى، ص. 20؛ باريس، 1847. دوما وأوسون دي شانسيل، الصحراء الكبرى، ص. 126، 139-140؛ باريس، 1861.

4-المرجع المذكور، الموضع المذكور أعلاه، المجلد الرابع، ص. 115.

زرقاء، ولكن هذا اللون نادرًا ما يوجد.[1] يبدو في الواقع أنه يجب التمييز، في هذا الصدد، بين القبايل النبيلة أو الحرة والقبايل الخاضعة أو المستعبدة، كما يلاحظ بارث، الذي تركز دراساته بشكل أساسي على توارق الجنوب. يقول إن «الإيموشاغ (مفردها أموشاغ) بشرتهم فاتحة إلى حد ما» وفي مكان آخر، أن توارق آخرين لديهم «ملامح معبرة وبشرة بيضاء.»[2]

فبكل هذا يتضح مدى ضعف رأي أولئك الذين، متمسكين بالنظرية القديمة للمناخات، مثل السيدين رامو وبرونر-باي على سبيل المثال، لا يترددون في القول بأن التوارق «هم بشكل عام أغمق لونًا بكثير من القبايل.»[3] فمهما كانت حرارة شمسهم، يبقى من المؤكد، في رأينا، أنهم يولدون ببشرة أكثر بياضًا من هؤلاء الأخيرين.

أما بالنسبة للقبائل أو البربر الشقر، أو بالأحرى ذوي الشعر الأحمر، فنجدهم على وجه الخصوص في المغرب «في بعض قرى الشلوح أو البربر الغربيين، ولدى معظم سكان جبال الريف،» كما يقول بيرثيلو. ويروي، كما فعل السيد دافيزاك، وبنفس المصطلحات تقريبًا، أنه «ربما لدى الشلوح أو بعض التوارق يجب أن نجد، في أنقى صوره بين السكان الحاليين، العرق البدائي للمازيغ.» كان بيرثيلو يعتقد أيضًا أن من هذا العرق «خرج على الأرجح الجيتول القدماء.»[4] ولكن، وفقًا للملاحظات التالية، حول الخصائص الفسيولوجية لهذه الشعوب، يبدو لنا أن الشلوح هم الذين يجب ربطهم بالقبايل، والأمازيغ البربر بالتوارق، والمازيغ، والجيتول، والميلانو-جيتول.

يلاحظ جاكسون أن الشلوح شعب مختلف تمامًا عن البربر، أقل قوة

1-المرجع المذكور، ص. 382.

2- المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 261؛ المجلد الثالث، ص. 205 ومواضع أخرى.

3-في «نشرات جمعية الأنثروبولوجيا»، 1863، المجلد الرابع، ص. 120-121، قارن مع ص. 372-373.

4- بيرثيلوت، المرجع المذكور، الموضع المذكور أعلاه، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص. 120. دافيزاك، في «الموسوعة الجديدة»، مادة «البربر»، ص. 607؛ باريس، 1836.

وأقل بنية رياضية. ثم، بمقارنة لغة وعادات الغوانش القدامى مع لغة وعادات الشلوح الحاليين، يسعى لإثبات أن هؤلاء السكان الأصليين، وليس البرابر، هم أصل الغوانش.[1] لكن بيرثيلو يميل إلى الاعتقاد، على العكس من ذلك، أن «البربر من العرق الأشقر كانوا الأصل الأول لهؤلاء الغوانش ذوي البشرة البيضاء والشعر الأحمر، الذين كانوا منتشرين جدًا في الجزء الغربي من أرخبيل الكناري قبل غزو هذه الجزر.»[2] لقد رأينا أنه كان يوجد في سكان الكناري نوعان مختلفان، ومن المحتمل أنهما النوعان الجذريان للسلالة الأطلسية؛ ومعرفة أيهما كان أولم يكن هذا النوع الأصلي أو أصل الغوانش، لا أحد يستطيع أن يقول. الأرجح أنهم كانوا متعايشين وغير منفصلين منذ البداية.

من الجيد أن نلاحظ هنا أن القائد الروماني سويتونيوس باولينوس، أثناء حملته عبر الأطلس، في هذه المناطق نفسها، يروي، وفقًا لبليني، أنه بالقرب من هناك كانت توجد شعوب تسمى «الكناريين»،لأنهم كانوا يأكلون الكلاب. إليك النص: أي «لأن طعام هذا الحيوان كان شائعًا لديهم، وكذلك أحشاء الوحوش المقسمة». يقول بليني أيضًا إن جزر الكناري سميت بهذا الاسم بسبب كلابها الكبيرة، أي «بسبب كثرة الكلاب الضخمة». هذا التقارب في الأسماء مثير للفضول،[3] لأنه يبدو أنه يشير إلى أن جميع سكان الكناري ربما كانوا من أصل واحد. وما لا يقل عن ذلك إثارة للدهشة هو أن عادة أكل الكلاب لا تزال شائعة جدًا في تقرت وفي واحات الزاب أو «الزيبان»، بينما لا توجد هذه العادة على الإطلاق لدى التوارق.[4] يتكون السكان المستقرون في هذه الواحات من القبايل، وكان أسلافهم أو سابقوهم في نفس الأماكن بلا شك من الجيتول فقط؛

1- المرجع السابق، ص 141--142،230-232

2- المرجع المذكور، الموضع المذكور أعلاه، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص. 141.

3- بليني، الكتاب الخامس، الفصل الأول، والكتاب السادس، الفصل الثالث والثلاثون.

4- غيون، رحلة، إلخ، المرجع المذكور، ص. 353، قارن مع ص. 255. دوفيرييه، المرجع المذكور، ص. 310.

لكن هؤلاء الجيتول، الذين أُطلق عليهم بالتناوب اسم النوميديين والموريتانيين، لم يسكنوا سوى جزءًا صغيرًا جدًا من المناطق الشاسعة التي شكلت «جيتوليا» الكبرى عند المؤلفين القدماء. من المعروف، علاوة على ذلك، أن جزر الكناري تبدو مرتبطة بنظام الأطلس، الذي ستكون امتدادًا له، وأنها ربما لم تكن دائمًا منفصلة عن القارة الأفريقية.

يصف غرابيرغ دي هيمسو بعناية «البربر» (الذين يسمون أنفسهم «أمازيغ») و«الشلوح»، وهما، حسب قوله، «بدون أدنى شك»، مختلفان جدًا. في الواقع، الأولون متوسطو القامة وذوو أشكال جميلة، رياضية، عصبية وقوية. ندرة لحاهم تميزهم عن جميع الأمازيغ الآخرين، وخاصة عن الشلوح. هم حيويون وأذكياء. بشرتهم بيضاء،وشعرهم غالبًا ما يكون أشقر، لدرجة أن المرء قد يظنهم أحيانًا من سكان شمال أوروبا، وليسوا أفارقة. أما الشلوح، على العكس من ذلك، وخاصة جنوب مدينة مراكش، أولئك الذين يعيشون في كهوف أو منازل من الطين، فيختلفون جوهريًا عن البربر، ليس فقط في اللغة، كما قلنا أعلاه، بل لأنهم أقل قوة، ولونهم أسمر، ولأن لديهم ميلًا طبيعيًا للفنون والحرف، يفوق بكثير ميل البربر. ألا يمكننا أن نعتقد أننا نتعرف في هذه السمات التفاضلية المقارنة على التوارق والقبايل؟ يطابق المؤلف بين الشلوح والماسيل والمسايسيل في موريتانيا الطنجية القديمة. ويقول إن الأمازيغ والشلوح، الذين يعيشون بالقرب من بعضهم البعض، ليس لديهم أي تعامل معًا، وأنه لا يوجد مثال واحد على زواج بينهم. ويشير، علاوة على ذلك، إلى أن الأمازيغ، الذين يُطلق عليهم خطأً اسم «البربر»، ينحدرون من أقدم سكان شمال أفريقيا بالكامل، المعروفين بأسماء الجيتول والميلانو-جيتول، والمازيغ، والمازيس، والذين كانوا أسلاف كل هذه الشعوب وشعوب الصحراء.

هنا هو المكان المناسب لتذكير ما يقوله بليني، وهو أن موريتانيا الطنجية، بعد الحروب وبعد الانقراض شبه الكامل للمور أو الموروسيين،

سكانها الرئيسيين، لم تعد مأهولة إلا بالجيتول من مختلف القبايل (2). لقد رأينا بالفعل (أعلاه، ص. 15-16) أنه، وفقًا لغرابيرغ، يدعي الشلوح أيضًا أنهم من نسل السكان الأصليين المباشرين للمغرب؛ ولكن ألا يمكن أن يكون الأمازيغ والشلوح على حق كلاهما؟ ما يبدو خارج الشك هو أنهم يشكلون شعبين متميزين جسديًا، ومعنويًا، ولغويًا، وأنهم لا يتزاوجون فيما بينهم.

نلاحظ، قبل مغادرة المغرب، حيث يُشار إلى وجود الكثير من الشقر بين السكان الأصليين، أن القوط الغربيين في إسبانيا كانوا يمتلكون موريتانيا الطنجية، وأنه ليس من المستحيل أن يكونوا قد تركوا فيها بقايا انضمت إلى السكان الشقر القدامى. وبالمثل، كان النورمان قد سبقوا الإسبان في غزو جزر الكناري، وربما لا يزال من الممكن العثور هناك على بعض آثار نوعهم الأشقر.

بالنسبة لبلاد القبايل وجميع الأماكن التي يسكنها القبايل، نعلم أن الأفراد ذوي البشرة البيضاء الفاتحة والشعر الأشقر أو الأحمر يوجدون هناك بشكل متكرر. بالفعل، في نهاية القرن الماضي، عبر مؤلف مذكرة عن «كولو» عن ذلك قائلاً: «الكوليون بشكل عام شقر، طوال القامة، وأقوياء.[1] بل إن السيد بيبسكو يقول إنه، في جرجرة، يكون القبايل شقرًا بقدر ما هم سمر.[2] ولكن في هذا الصدد، نفتقر إلى ملاحظات دقيقة تم جمعها من نقاط مختلفة. معلومة أحدث تخبرنا أنه، في الريف وفي داخل المغرب، لدى الأمازيغ والشلوح، تبلغ نسبة الشقر حوالي 1 من كل 10 سكان. النوع الأشقر موجود أيضًا جنبًا إلى جنب مع النوع الأسمر في وسط قبائل الصحراء الجزائرية. من المتفق عليه أن هذا النوع ليس نادرًا على الإطلاق لدى بني مزاب، ودوماس، من بين آخرين، يلاحظ أنهم «بيض جدًا،» وأن الكثير منهم «لديهم عيون زرقاء وشعر أشقر.»

هؤلاء الكثير من الشقر الأفارقة. ومع ذلك، في مواجهة كل هذه

1- المرجع المذكور، ص. 69-77، قارن مع ص. 78-80.

2- الكتاب الخامس، الفصل الأول..

الحقائق، إذا فكرنا في النسبة المنخفضة نسبيًا لهؤلاء الشقر الحاليين، مقارنة بما يجب أن تكون عليه وفقًا للشهادات القديمة، التي تظهر لنا بين الليبيين القدماء مجموعات سكانية كبيرة من العرق الأشقر، فإن المرء يبدأ في الشك في أن كل هذه الأنواع الشقراء قد استمرت دون أن تتغير، دون أن تتعدل بشكل ملحوظ جدًا؛ ويتساءل المرء عما إذا كانت الأنواع الشقراء أقل ثباتًا من الأنواع السمراء، وما إذا كانت الأعراق الشقراء، في التزاوج، لا تهيمن عليها الأعراق السمراء، وربما مع مرور الوقت تمتصها إلى حد ما. لدينا أسباب للاعتقاد بأن الأمر كذلك، على الأقل في بعض المناخات، حتى في التزاوج بين الأعراق الأصلية أو المتجنسة في الأماكن التي تسكنها. ولكن هذه مسألة لا يمكن أن تجد تطوراتها مكانًا هنا.

على أي حال، كما قلنا في البداية، فإن الاسم القديم للمازيغ، إلخ، ليس سوى اسم «أمازيغ» (الجمع، إيمازيغن)، والذي يعني «حر»، ويقابل أسماء «إيموشاغ»، و«إيموهاغ»، و«إيماجيرهن»، والتي يعني جذرها أيضًا «هو حر»، «هو مستقل»، إلخ.[1] هذا الاسم العام، كل الشعوب المسماة بالبربرية تطلقه على نفسها أو تقبله، كما نسميهم نحن «الأطلنطيين»، بينما يحملون أسماء خاصة، من الضروري أيضًا الحفاظ عليها لهم. أخيرًا، ألا تكون هذه التسمية المشتركة قابلة للتطبيق بشكل خاص على عرق سكان الصحراء هؤلاء، وكذلك على أمازيغ المغرب، الذين يمثلون بشكل عام الجيتول والمازيغ، بينما تمثل المجموعات السكانية القبايلية الحقيقية وكذلك الشلوح بالأحرى عرق الليبيين؟ هذا ما يميل إلى الظهور من هذه الدراسة وأبحاثنا. لكم الحكم.

سادساً. الشاوية وشقر الأوراس.

في المنطقة الوسطى من محافظة قسنطينة على وجه الخصوص

1-دوفيرييه، المرجع المذكور، ص. 318، 327. قارن مع بارت، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 288 وما بعدها.

يجب البحث عن «الشاوية»، وهي قبائل تحدث عنها مارمول بالفعل، تحت اسم «الشافيين». يذكر مارمول أيضًا «شافيين» «في ريف تلمسان،» والذين ينحدرون من «الزناتة.»[1] يذكر بيسونيل هذه القبايل نفسها، اللاجئة في جبال الأوراس، التي زارها عام 1725. وإليكم كيف يصفهم: «هؤلاء القوم دمهم أبيض، وشعرهم طويل، وهم متناسقو البنية؛ يتحدثون لغة خاصة، لا يفهمها العرب ولا الأتراك ولا المسيحيون إذا لم يتعلموها؛ يسمونها لغة «الشاوية».» وعاداتهم أيضًا مختلفة جدًا عن عادات السكان المحيطين بهم. يقول إنهم يسمون «أولاد بلقاسم» وأن لهم أسماء أخرى. كان دورو دي لا مال يعتقد أن هؤلاء «الأولاد بلقاسم» ليسوا سوى القبايل الشقر في الأوراس، الذين أشار إليهم شو على أنهم قد ينحدرون من الوندال، وزارهم بروس بعد حوالي نصف قرن، والذي يطلق على قبيلتهم اسم «نارديه»؛ ووفقًا لريتر أيضًا (الذي يستشهد ببانانتي)، فإن هؤلاء القبايل الشقر أنفسهم «يسمون «شاوية» في جبال الجزائر.» ومع ذلك، يحرص بيسونيل على القول إن هؤلاء القوم هم من نسل «الشاوية الذين تحدث عنهم مارمول.»[2] وفي رأينا، من الخطأ أن تتم المطابقة غالبًا بين الشاوية وشقر الأوراس. فهذه، في الواقع، مجموعة سكانية أصلية خاصة، تتكون بالتأكيد من عناصر مختلفة، نجد فيها غالبًا عيونًا زرقاء، وشعرًا أشقر، أو أحمر، ويجب تمييزها عن القبايل الشقراء المنتشرة في الأوراس، والتي يُنسب إليها أصل وندالي.

تقول إحدى الروايات المتداولة بين الشاوية إن أسلافهم هم القبايل الحميرية الخمس، التي عبرت من بلاد العرب السعيدة إلى أفريقيا؛

1- المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 81، 90، قارن مع المجلد الثاني، ص. 138.

2-بيسونيل، récit d›un voyage sur les côtes de Barbarie، الرسالة الثانية عشرة، ص. 347-348؛ باريس، 1838. دي لا مال، مقاطعة قسنطينة، ص. 165؛ باريس، 1837. بروس، رحلة إلى منابع النيل، إلخ، ترجمة فرنسية، المقدمة، المجلد الأول، ص. LII-LIII؛ باريس، 1790. ريتر، الجغرافيا العامة المقارنة، أفريقيا، ترجمة فرنسية بقلم دوريه وإد. ديسور، المجلد الثالث، ص. 182؛ باريس، 1836. قارن مع شو، رحلات في عدة مقاطعات من بربريا، إلخ، الفصل الثالث عشر، ترجمة فرنسية، المجلد الأول، ص. 153 وما بعدها؛ لاهاي، 1743.

وجميع سكان محافظة قسنطينة يعتقدون أنهم من نسل الزناتة. بل إن السيد دي سلان يقول إنه، في هذه المحافظة، عند الحديث عنهم، «يُستخدم الكلمة العربية «شاوية» (رعاة)، أو الكلمة «زناتية» (زناتيون).[1] ولكن ما تعلمنا إياه هذه الرواية بشكل خاص هو أن أصلهم يختلف عن أصل القبايل. لأنه، إذا كان صحيحًا أن هذه القبايل الحميرية قد جاءت في وقتها لتنضم إلى السكان الليبيين أو الجيتوليين، كما نعتقد، فإنها بلا شك، إن لم تكن قد امتصت في السيل الأصلي، فقد تغيرت إلى حد ما بفعل التزاوج بحيث لم يتبق منها سوى آثار ضعيفة. وأي تشابه، علاوة على ذلك، يوجد بين هذه الأنواع وأنواع العرب؟ لذا، لا شيء أكثر غموضًا من مسألة أصلهم.

فبخلطهم إلى حد ما مع شقر الأوراس، قيل إن الشاوية «عرق مختلط نشأ بوضوح من العرب البدو وشعوب الشمال»؛[2] وقيل إنه، وفقًا لرواية محلية، «يسكنون البلاد منذ زمن طويل جدًا، وأنهم حافظوا على وجودهم فيها في وقت طُرد فيه رجال آخرون، من مواطنيهم، كانوا يحتلون الأجزاء المجاورة من أفريقيا»؛ وأيضًا أن خصائصهم الجسدية، مثل غياب شحمة الأذن، على سبيل المثال (معلومة مشكوك فيها)، تشهد على أصل شمالي (1).[3] نحن من جانبنا نميل بشدة إلى اعتبار قبائل الشاوية، وهي كثيرة وممتدة على نطاق واسع، مجموعة مختلطة ناتجة بشكل أساسي عن اختلاطات قديمة جدًا بين أعراق سمراء (ربما من أصل عربي في الأصل) وأعراق شقراء أصلية. هناك، كما نرى، أبحاث يجب القيام بها وهي لا تخلو من جاذبية قوية.

<u>الشاوية، الذين</u> ربما تدهوروا بسبب الاختلاط، بدوا لنا بشكل عام

1- في ابن خلدون، المرجع المذكور، الملحق، المجلد الرابع، ص. 135.

2- بوري دي سان فنسان، حول الرجال البيض في جبال الأوراس، في «التقارير الأسبوعية لأكاديمية العلوم»، سنة 1845، المجلد 21، ص. 1412.

3-غيون، حول العرق الأبيض في الأوراس، نفس المرجع، سنة 1845، المجلد 21، ص. 1388؛ نفس المرجع، حول الشاوية، نفس المرجع، سنة 1846، المجلد 22، ص. 28؛ نفس المرجع، رحلة، إلخ، المرجع المذكور، ص. 140-142.

هجينين، غير متناسـقي البنيـة جسـديًا، يفتقرون إلى الطاقـة المعنويـة وأقل ذكاءً من القبايل. هم بعيدون كل البعد عن أن يكونوا صناعيين، نشـطين، ومجتهدين مثل هـؤلاء الأخيرين؛ يصنعـون بشـكل أسـاسي أقمشـة الخيـام، ويزرعـون الحبـوب. خـارج ديارهـم، غالبًـا مـا يكونـون خدمًا أو مكلفين بأعمال وضيعة. لا يملك الشـاوية أيضًا حب الاسـتقلال وتقديس الوطن بقدر القبايل. يقال إنهم أول من انحنوا تحت نير العرب، الذين يحتقرونهم، وكذلك القبايل. ويتحدثون، علاوة على ذلك، وهو أمر يجب ملاحظتـه، لهجـة خاصـة جدًا، تحتـوي على كلمات عربيـة أكثر من القبايليـة. يجـب أيضًـا ملاحظـة أنـه، في البـلاد، يُطلـق على شـاوية قبائـل الأوراس، وبلزمة، والجبال المجاورة ببساطة اسم «الجبيلية» (جبليون)، بينما يُطلق دائمًا على سكان السـاحل اسـم «القبايل».[1]

سـنضيف أن مـا أدهشـنا لـدى الشـاوية الذيـن رأيناهـم في محافظـة قسنطينة هو أنه إذا كان شعرهم يشبه شعر عدد كبير من القبايل، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة للون بشرتهم الباهت، الذي يتناقض مع اللون الأسـمر إلى حد ما لهؤلاء الأخيرين. وجوههم، علاوة على ذلك، غالبًـا ما تظهر عليها بقع من النمش أو «الإيفيليد»، التي تُلاحظ أيضًا لدى أمازيغ الريف في المغرب، على وجه الخصوص، والتي يُشار إليها على أنها تنقط بشكل متكرر وجوه سكان الكناري القدامى والمحدثين.[2]

فيمـا يتعلـق بشـقر الأوراس، الذيـن نعتبرهـم في الأصـل متميزيـن عـن الشـاوية، الذيـن يعيشـون في وسـطهم والذيـن يُخلـط بينهـم خطـأً، ليـس علينا العـودة هنا إلى كل ما هو معروف عن هذه المجموعة السكانية شبه الشـهيرة، والتي اهتمت بها الجمعيـة في الماضي.[3] لـن نقـول سـوى كلمـة واحـدة عـن فرضيـة أصلهـم القوطي أو الونـدالي، وهي فرضيـة يدعمهـا

1- أوربان ووارنييه، في جدول المؤسسات، إلخ، المرجع المذكور، سنة 1840 ص. 313، قارن مع ص. 326.

2- بيرثيلوت، المرجع المذكور، الموضع المذكور أعلاه، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص. 133.

3-نشرة جمعية الأنثروبولوجيا، 1860، المجلد الأول ومواضع أخرى.

البعض ويرفضها البعض الآخر، وتتطلب من كليهما تحقيقات جديدة وجادة، ليس عن بعد، بل في الأماكن نفسها.

يُعتقد أن جستنيان نفى من أفريقيا كل ما تبقى من الوندال. ولكن المستعمرات الرومانية أيضًا، ثم الإغريق-الرومان، طُردوا من الإقليم، عندما لم يهلكوا في الصراع؛ وفي زمن ابن خلدون، كانت لا تزال توجد في ضواحي قفصة قبيلة من «الفرنجة» (الفرنج، اللاتين)، بقايا الرومان القدماء، وكانوا مسيحيين.[1] وإذا صدقنا ضابطًا من جيش أفريقيا، الذي يروي لنا ذلك، فإنه زار، في وادٍ من الأوراس، قبيلة كان سكانها، وخاصة النساء، من النوع الروماني، وكانوا يقولون إنهم رومان، «روميو» أو «روميا». لم يريدوا أن يُطلق عليهم اسم «رومي»، وكانوا موشومين بشكل عام بعلامة الصليب. عائلات أخرى أو فروع من القبايل القبايلية تعتقد أنها من نسل الرومان أو الفرنج والجرمان. ومنهم على وجه الخصوص «الإبيدا»، لدى «آيت فراوسن»، على أرض مستعمرة «بيدا» القديمة نفسها؛ ومنهم «الإجرمنن»، الذين يوجد بينهم الكثير من ذوي الشعر الأحمر أو الأشقر، والذين يُعتبرون في البلاد من أصل جرماني.[2] ألا يمكن، في الواقع، أن تكون القوات الغالية والجرمانية التي استخدمت لفترة طويلة في أفريقيا قد تركت بعض الأمثلة من نوعها، والتي استمرت؟ ما هو مؤكد هو أنه، بغض النظر عن القوات الأجنبية الأخرى التي خدمت في الجيوش الرومانية، والتي تشير إليها الاكتشافات الكتابية، مثل البارثيين، والسيغامبر، والبريطانيين، إلخ، ما هو مؤكد، نقول، هو أنه، في حرب قيصر في أفريقيا، كانت هناك، في كلا المعسكرين، فيالق من المحاربين القدامى الجرمان والغاليين.[3]

1-دورو دي لا مال، المرجع المذكور، ص. 177.

2-ديفو، المرجع المذكور، ص. 297، 353-354. أوكابيتان، المرجع المذكور، ص. 260-262 وملاحظة.

3- بيربروجر، في «المجلة الأفريقية»، المجلد الخامس، ص. 186؛ الجزائر، 1861. (هيرتيوس)، المرجع المذكور، 19، 36، 40، 48.

وهكذا، بعد تدمير مملكة القوط الغربيين في إسبانيا، حافظوا على وجودهم، في شكل دول مسيحية صغيرة، في جبال أستورياس وجاليسيا، حيث تحدوا لفترة طويلة القوة الإسلامية، والتي لا يزال يوجد فيها حتى اليوم النوع الواضح لهؤلاء الرجال الشماليين، كما قيل. ويروي لنا رحالة من أصدقائنا أيضًا أنه في إسبانيا، النوع القوطي ليس نادرًا، وهو أمر لا يثير الدهشة. وبالمثل،[1] طُرد المور بدورهم من شبه الجزيرة من قبل فيليب الثالث؛ ومن المعروف أن «الألبوخاراس»، التي كانت بمثابة آخر ملجأ لهم، لا تزال تضم سكانًا يذكرون من جميع النواحي، جسديًا ومعنويًا، بالحكام القدامى (3).[2] هذه الأمثلة كثيرة: شعب، حتى لو كان مهاجرًا، يغير دينه، يغير لغته واسمه؛ لكننا نرى كل يوم أن العرق يمكن أن يستمر مع ذلك.

بروكوبيوس، علاوة على ذلك، لا يقول إن جميع الوندال قد أُخذوا أسرى؛ بل يقول إن الجنود الرومان، بعد النصر، تزوجوا من نسائهم وبناتهم. الآن، هؤلاء الوندال أنفسهم يمكن أن يعطوا لغزاتهم ذرية وندالية، كما كانت النساء الغاليات يعطين الجنود الرومان ثمارًا غالية، وكما فعلت نساء الغوانش المتحالفات مع الغزاة الإسبان. هذه الحقيقة ليست ثابتة؛ ولكن، إذا لم تكن تنتمي إلى جميع الأعراق، يمكن القول إنها عامة إلى حد ما. بل نتج عن هذه الزيجات مطالبات رهيبة بإرث الوندال. يخبرنا مؤرخ بيليساريوس أيضًا أن أربعمائة وندالي، أُخذوا أولاً إلى القسطنطينية، ثم أُعيدوا إلى البحر لوجهة جديدة، تمكنوا من العودة إلى موريتانيا وجبل أوراسيوس؛ وأخيرًا، أن ألف جندي من هذه الأمة، وجدوا أنفسهم مرة أخرى بين المتمردين في جيش «ستوزاس».[3]

أما بالنسبة للغة التي تتحدث بها هذه القبايل الشقراء، فإذا ادعى

1- ديبينغ، التاريخ العام لإسبانيا، المجلد الثاني، ص. 45 وما بعدها؛ باريس، 1811. بورو، في نوت وجليدون، الأجناس الأصلية للأرض، ص. 221؛ لندن، 1857.

2- بوري دي سان فنسان، موجز الجغرافيا الطبيعية، ص. 509؛ باريس، 1826.

3-المرجع المذكور، الكتاب الثاني، الفصلان 14 و19.

البعض أنه لا يوجد في لهجتهم أي أثر للجرمانية، فإن آخرين يدعون العكس. وقيل أيضًا إنه، أثناء حملة دوق أومال (عام 1845)، تم التعرف على أن سكان الأوراس «يحملون آثارًا واضحة لأصل جرماني.[1] من ناحية أخرى، اعتقد أحد زملائنا العلماء أنه يمكنه التعبيرعن ذلك على النحو التالي: «الفحص التشريحي لهياكل هؤلاء القبايل أثبت لي أنه لا يوجد أي تشابه بينهم وبين الألمان، وأنهم ينتمون إلى نفس أصل التوارق.»[2] لكننا نعتقد أن هذا بالأحرى تخمين، ويجب أن يكون محفوفًا بالمخاطر إلى حد ما، إذا كان صحيحًا أن البيانات الكافية لحل هذه المسألة كانت مفقودة حتى يومنا هذا.

لذلك، نترك بالضرورة للمستقبل أن يقرر في هذه النقاط. وفي انتظار الأدلة التي نطالب بها، في ضوء الشهادات المكتسبة، نصر على الاعتقاد بأن هؤلاء القبايل الشقر، المختلفين تمامًا عن الشاوية، يجب أن يمثلوا بقايا الاحتلال الوندالي. كان السيد دي روجيه أول من اعتقد أن وجود الشعوب الشقراء القديمة في شمال أفريقيا، التي أطلق عليها المصريون اسم «تامهو»، يمكن أن يفسر الحقيقة التي تشغلنا، دون الحاجة إلى اللجوء إلى الوندال.[3] لكن كل المفاهيم التي نمتلكها عن الليبيين الشقر في العصور القديمة لا تعود فقط إلى اكتشاف وثيقة الكرنك؛ وإذا لم نكن مخطئين، فإن المسألة تظل قائمة كما كانت قبل الاكتشاف وبعده.

سابعاً. استنتاجات وخلاصات.

بالنظر إلى البلدان التي كانت ليبيا القديمة، وشمال أفريقيا والصحراء في أيامنا هذه، في مجملها، يبدو أنها لم تشهد سوى تغييرات طفيفة. ومع ذلك، فقد تدهورت، بعض أجزائها على الأقل، وأصبحت أقل سكانًا. لقد تضاءل الإنسان، في القرون الحديثة، تحت وطأة

1- فورناري، رحلة طبية في شمال أفريقيا، ص. 18؛ باريس، 1845.

2-برونر-باي، في «نشرات جمعية الأنثروبولوجيا»، 1863، المجلد الرابع، ص. 372.

3-المرجع المذكور، الموضع المذكور أعلاه، المجلد السادس عشر، ص. 83، ملاحظة.

صراعات لا هوادة فيها، وسط الأنقاض المتراكمة وجميع الدمار الذي ارتكبه الحكام. وبموجب قانون الارتباط الضروري، تبعت الأرض مصير الإنسان. لا تزال هذه المنطقة من المغرب هي «الخضراء» عند عرب الفتح؛ لكن نفس الأراضي التي كانت تطعم روما تحت حكم الأباطرة لم تعد تطعم حتى سكانها اليوم.

من النيل إلى المحيط، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى النيجر، نجد تقريبًا نفس الشعوب كما في الماضي، والتي لم تفعل سوى تغيير أماكنها وأسمائها في كثير من الأحيان؛ بعضها مستقر إلى حد ما، مزارعون؛ والبعض الآخر رعاة وبدو إلى حد ما. ومن المنطقي الاعتقاد أنه، باستثناء نسبة الشقر وتوزيعهم بين السكان الحاليين، فقد حافظوا بشكل عام على المظهر والسمات الرئيسية التي ميزت أسلافهم. لا نعرف أكثر من ذلك. ومع ذلك، فيما يتعلق بأخلاقهم، في ماضٍ بعيد بالفعل، لدينا ابن خلدون نفسه ليخبرنا بذلك. ويجب أن نرى الألوان الزاهية التي يستخدمها في رسم لوحة مجدهم السابق. يقول: «نعتقد أننا قد ذكرنا سلسلة من الحقائق التي تثبت أن البربر كانوا دائمًا شعبًا قويًا، مهيبًا، شجاعًا، وكثير العدد؛ شعبًا حقيقيًا مثل الكثيرين غيرهم في هذا العالم، مثل العرب، والفرس، واليونانيين، والرومان.» ويضيف: «لنذكر بعد ذلك الفضائل التي تشرف الإنسان والتي أصبحت للبربر... طبيعة ثانية: حرصهم على اكتساب الصفات المحمودة، ونبل الروح الذي وضعهم في المرتبة الأولى بين الأمم، والأعمال التي استحقوا بها ثناء العالم، والشجاعة والسرعة في الدفاع عن ضيوفهم ومواليهم، والوفاء بالوعود والعهود والمعاهدات، والصبر في الشدائد... والابتعاد عن الانتقام، والعطف على البائسين، واحترام كبار السن... والصناعة، والضيافة، والخير، وعظمة النفس، وكره الظلم.» ويعدد الرجال العظام، وهم كثر، من بين حكام الدول، ومؤسسي الإمبراطوريات، والشخصيات المقدسة، والمؤرخين، وغيرهم

من العلماء الذين أنتجهم هذا الشعب، ولا يمل من مدح مجدهم[1]. الآن، إذا كانت تقييمات الكاتب العربي الشهير، من وجهة النظر الإثنولوجية، لا تستحق سوى القليل جدًا من الثقة، فسيتم الاعتراف بأن هذا المديح الفخم للشعوب المسماة بالبربرية ليس مشبوهًا من جانب المؤلف. ربما يكون من الجيد التذكير بمثل هذه الشهادات في وقت تم فيه تجاهل خصائص هوية هذه الشعوب وقيمتها كثيرًا، لإسناد كل ما يأتي من المسلمين إلى العرب وحدهم.

من المؤكد أن الأولين لم يرتقوا أبدًا في العلوم بقدر ما فعل الأخيرون. لم يكن ذلك في مدار قدراتهم في ذلك الوقت. ومع ذلك، من المعروف أنه بعد أن كانوا أقوى داعمي الجيوش الإسلامية في إسبانيا، فإن أسلافهم بشكل عام هم الذين، تحت اسم «المور»، بنوا معظم الآثار التي تثير الإعجاب في إشبيلية، وقرطبة، وكذلك في فاس، ومراكش، والتي يُنسب شرفها في كثير من الأحيان إلى العرب. سيكون من المثير للاهتمام أيضًا البحث عن التقدم الذي حققوه، لا سيما تحت حكم الموحدين؛ ولكن يُفضل إهداء الحضارة العربية جميع الأعمال الإسلامية، وعدم ترك أي شيء للبربر من نصيب الأسد. لنتذكر، مع ذلك، عرضًا، أن طارق بن زياد، قاهر رودريك، كان بربريًا. والأمير عبد القادر هو أيضًا من هذا الأصل، وفقًا للسيد وارنييه، الذي يجب أن يعرف ذلك.[2]

لقد انحطوا كثيرًا بلا شك، قبائلنا المحدثون. وإذا كان المؤرخون العرب يلومون البربر على ارتدادهم اثنتي عشرة مرة قبل الخضوع لقانون محمد،[3] فذلك لأن لديهم أسبابًا وجيهة لعدم قبول تعاليم القرآن. ولكن يكفي أن نتذكر أنهم كانوا تحت النير لأكثر من ألف عام. فليُرنا أحد شعبًا يحافظ على فضائله القديمة وأنوار معرفته تحت وطأة قمع طويل. ما

1- المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 214-215. قارن مع ليون، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 102 وما بعدها.

2-المرجع المذكور، ص. 42، ملاحظة.

3- ابن خلدون، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص. 28، 198، 215 وما بعدها.

هو مؤكد مع ذلك هو أن محاربي الماضي يعيشون في قبائل اليوم؛ وأنهم، مختلفين تمامًا في ذلك عن العرب، هم بشكل عام أوفياء لالتزاماتهم؛ وأنه توجد بينهم وبيننا نقاط اتصال لا حصر لها، وأنه، بالنسبة للجزائر على وجه الخصوص، هم العنصر بامتياز الذي يرتكز عليه صرح سيطرتنا. قيل ذلك كثيرًا وعبثًا؛ فلنخشَ من تكراره.

شعب الصحراء قد حافظ، على الأرجح، مع اختلاط أقل، ومع استقلال كامل، على عادات أنقى، وشخصية أسمى من القبايلي. ويبدو في الواقع أننا نجد لديه تميزًا أكبر، وحضارة نسبية أكبر. لقد رأينا، علاوة على ذلك، أن التوارق، من خلال عدة سمات رئيسية في عاداتهم وتكوينهم الاجتماعي، يختلفون كثيرًا عن القبايل، كما لو أن أحدهما أو الآخر، بافتراض أنهما من أصل واحد، قد احتفظ بعادات غريبة عن عرقه الخاص واستوعبها، ولكن يمكن اعتبارها، حتى في هذه الحالة، شاهدة على قدرات متميزة في الأصل.

وبقدر ما تكون العائلات أو المجموعات السكانية قد تأثرت واخترقت من قبل الهجرات القديمة أو من قبل عرب محمد، سيكون من الصعب العثور في هذه المجموعات السكانية على أنواع نقية، يمكن أن يساعد الفساد الأقل في اللغة على اكتشافها. وبما أن الهجرات، بشكل عام، اتبعت مسارها من الشرق إلى الغرب، نقول بشكل عام، فمن المفترض أنها تركت أكبر قدر من الآثار في هذا الترتيب. من اللافت للنظر جدًا أن اللغة القبايلية تشهد تراجعًا متزايدًا من الشرق إلى الغرب، لدرجة أنها، بينما لا تزال تُتحدث في ضواحي شرشال وتنية الحد، لم نعد نجدها، في أقصى محافظة وهران، إلا وراء سبدو (1). وكل السكان القبايل، علاوة على ذلك، أقل كثافة بشكل عام في شرق المغرب منهم في غربه، وفي الإيالة التونسية منهم في المغرب.

ولكن، بلا شك، فإن الزمن، هذا المطهر العظيم للأعراق، قد فعل الكثير لتجفيف الدم الأجنبي، عندما جاء ليختلط بالدم الأصلي.

المجموعات الهجينة المعروفة لدى القدماء، إذا كانت موجودة، لم تعد موجودة، والكراغلة يختفون. وهكذا، فإن الاحتلالات المختلفة عن طريق الغزو قد مرت مثل الأمواج، ولم تغير سوى السطح العرقي.
أخيرًا، ما لا جدال فيه هو أنه في بلاد القبايل وأماكن أخرى، في معاقلهم المنيعة، أعشاش النسور الحقيقية، لا يزال السكان الفخورون لهذه الجبال يمثلون إلى حد كبير رجل العصور الماضية. وبشكل أكبر، فإن التوارق، الذين لم تغرِ مساراتهم الشاسعة والقاحلة الغزو أبدًا، والذين ظلوا أحرارًا فيما بينهم، لم يتغيروا كثيرًا بفعل التزاوج.

إذن، ففي مقارنة هذه الأنواع النقية لدى هؤلاء وأولئك، أكثر بكثير من مقارنة اللغات، يجب البحث عن حل مشكلة قرابتهم المتبادلة.

باختصار، وللختام، نعتقد أنه كان يوجد منذ أقدم العصور، ولا يزال يوجد في شمال أفريقيا، وفي الصحراء، وكذلك في جزر الكناري، نوعان أساسيان من الأعراق، يمكن اعتبارهما فرعين من الأصل الأطلسي، الأصلي في الأطلس: أحدهما بشكل عام أحمر الشعر أو أشقر، والآخر ذو شعر بني.

ومهما كانت التغيرات التي طرأت (في الشعر على وجه الخصوص) نتيجة للاختلاطات القديمة والحديثة، ليس فقط مع الفلسطينيين والعرب، بل بينهم أنفسهم، نعتقد أنه من المسموح به أن نرى بشكل رئيسي في مجمل المجموعات القبايلية وفي التوارق الحاليين إما بالأحرى أحد العرقين القديمين أو الآخر.

كل ما نعرفه عن التوارق، الذين يجب، كما هو الحال بالنسبة للقبائل، إعادة أسمائهم الحقيقية لهم (تلك التي يطلقونها على أنفسهم)، يسمح بالاعتقاد بأنهم، كونهم من نوع آخر، هم من عرق آخر غير القبايل. وبعد أن أشرنا إلى بعض السمات التفاضلية الرئيسية، التي تبدو لنا أنها تفصل بين الشعبين، ندعو بكل أمانينا إلى دراسات علمية جديدة، لا سيما على «الإيموهاغ» وغيرهم من سكان الصحراء الكبرى،

وهم مجموعات سكانية لا تزال غير معروفة كثيرًا، وغامضة تقريبًا، والتي تنحدر بشكل عام من الجيتول القدامى في «جيتوليا» الكبرى، ويجب تمييزها عرقيًا، اليوم كما في العصور القديمة، عن مختلف العائلات القبايلية، التي تمثل بشكل خاص الليبيين القدماء.

تمت ترجمة الكتاب بحمد الله تعالى

فهرس تحليلي

أولاً: الأسماء (شخصيات ومؤلفون)

ثانياً: الأماكن

ثالثاً: الشعوب والقبائل

رابعاً: مصطلحات ومفاهيم

أن استخدام المؤلف لهذه العبارة "المسماة بربرية" (dites berbères) لم يكن اعتباطياً، بل كان يعكس تشكيكاً علمياً مبكراً في صحة إطلاق تسمية واحدة – "البربر"، وهي تسمية خارجية ذات أصل لاتيني – على فسيفساء متنوعة من الشعوب تمتد من مصر إلى المحيط الأطلسي. هذا التشكك يتوافق اليوم مع الوعي الأمازيغي الحديث الذي يفضل مصطلح "الأمازيغ" ومشتقاته للتعبير عن هويته الذاتية، ويؤكد على تنوعه الداخلي.

LIBYAN WORD BRIDGE Translation

الجمعية الليبية للدراسات الأمازيغية